تاريخ الإرسال (2021-1-31)، تاريخ قبول النشر (2021-3-22)

* 1

أ. محمد جاسم الجاسم

اسم الباحث:

كلية الشريعة - جامعة قطر

1 اسم الجامعة والبلد:

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address:

Mj.aljassim9@gmail.com

<https://doi.org/10.33976/IUGJIS.30.1/2022/28>

صفات الاعتبار ومناسبتها لإدراك البراهين القرآنية

الملخص:

عني هذا البحث بدراسة المناسبة بين الصفات المذكورة في فواصل الآيات التي جاء فيها قول الله عز وجل (إن في ذلك لآية) و (إن في ذلك لآيات)؛ وآياتها، متبعاً في ذلك أدوات المنهج الاستقرائي والتحليلي لفهم الارتباط المعنوي بين معنى الآية حال كونها برهاناً إيمانياً لمن كانت هذه صفته، فتم حصر الآيات المشتركة في الصفة التي من خلالها وجه الاعتبار لإدراك البرهان الإيماني، وتم النظر في المواضيع التي عالجتها هذه الصفات كونها وسائل لإدراك البرهان المشار إليه في الآية.

ويدرس البحث كذلك كيف كانت هذه الصفات طرقاً ووسائل لإدراك البرهان الإيماني، وقد وجد الباحث أن هذه الصفات جاءت في غاية الاتساق مع جو السورة بشكل عام ومع الآية بشكل خاص والدليل الذي تعرضه، وأن الباري عز وجل قد نوع في الأدلة والطرق الموصلة لها في أسلوب هو غاية الإعذار منه تعالى لعباده.

كلمات مفتاحية: براهين، صفات، مناسبات، آيات

Attributes of Considerations and its Suitability for Comprehending Quranic Proofs

Abstract:

This paper is designated to study a specific Ayat of The Holy Quran, those that are closed by directing the signs to a specific character, such as thinking, hearing, knowledge, faith, remembering, righteousness and so on. Such as His saying: «Indeed in that are signs for a people who believe» [An-Naml: 86], and the question of the study: is how this character (believing in this Aya) is suitable to the context of the Aya it's mentioned in.

They study covered thirty-six Aya from the Holy Quran which had this pattern, and the characters that was set as a key to understand the sign in the Aya was in: faith, Mind and thinking, remembering, righteousness, hearing, worshipping, repenting, patience and thanking, and the conclusion was that all those characters were very suitable to the context of both the aya and the Surah they are mentioned in.

Keywords: proofs, signs, suitability, characteristics

جسم البحث:

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا بحثٌ يُعنى بدراسة المناسبة بين الصفات المذكورة في فواصل الآيات التي جاء فيها قول الله - عز وجل -: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)، و(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ)، فيسعى لفهم الارتباط المعنوي بين معنى الآية حال كونها برهاناً لمن كانت هذه صفته، سواء كانت الشكر أو التفكير أو العقل أو غيرها. وكان من حسن التقسيم الموضوعي أن صُنِّفت الآيات على حسب الاشتراك في صفةٍ مَنْ وَجَّه إليه الاعتبار: المؤمنين، المتفكرين، العاقلين، ونحوهم، فأجمع الآيات المشتركة في التفكير مثلاً وأنظر في علة الاشتراك بين هذه الآيات في هذه الصفة، وأسعى من خلال ذلك للإجابة على السؤال: ما السمة المشتركة بين هذه الآيات الواردة في سور مختلفة، حتى رُتِب إدراك برهانها على من كانت هذه صفته؟

1. مشكلة البحث.

يعالج البحث موضوع التناسب بين صفات الاعتبار ومدلول الآيات، وي طرح سؤالاً جوهرياً، وهو: ما وجه التناسب بين صفات الاعتبار ومعاني الآيات التي وردت هي فيها؟ وما الذي جعل هذه الصفات سبيلاً لإدراك البرهان القرآني؟

2. أسئلة البحث وأهدافه.

يسعى البحث لتقديم أجوبةٍ على أسئلة، منها:

- كيف تكون هذه الصفات وسائل لإدراك البرهان الإيماني؟
- ما مناسبة هذه الصفات للآيات الواردة فيها؟

أما أهدافه فهي: - إثبات أن الصفات المدروسة جاءت في ألصق مناسبة لموضوع الآية.

- إثبات أن هذه الصفات هي من أجل وسائل إدراك البرهان الإيماني.

- الكشف عن وجه من وجوه المناسبة القرآنية، وبلاغته، وبيانه العظيم.

3. أهمية البحث.

الدراسات السابقة في علم المناسبة القرآنية كثيرة جداً، كذلك هي التي تدرس علم الفاصلة القرآنية ومناسبتها، لكن جلها تدرس أموراً مختلفة أو سوراً معينة، وتكمن أهمية هذا البحث في كونه أفرد دراسة المناسبات في هذه الآيات المخصوصة ببحث مستقل، ساعياً للكشف عن المناسبة في نمط معين متعلق بسياق خاص، فعسى أن يكون إضافة في ميدان هذا العلم.

4. حدود البحث.

القرآن الكريم كله، وقد تم حصر جميع الآيات في القرآن على الشرط الذي ذكرت؛ وهو أن تكون في خاتمة الآية، لا آية مستقلة بذاتها، فوجدت أن الآيات التي ختمت بقوله عز وجل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)، و(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) قد بلغت ستاً وثلاثين آية، سيأتي ذكر كل منها في محله.

ونرى أن الصفات التي من شأنها أن تعين على إدراك البراهين التي تشير إليها الآيات محصورة في خطاب القرآن الكريم في: الإيمان، التفكير، العقل، العلم، التذكر، التقوى، السمع، الصبر والشكر معاً، والعبودية والإنابة معاً، وغاية البحث أن يحل هذا الخطاب وأن يبحث في تناسب هذه الصفات وعلاقتها بالمعاني. والله تعالى موفق لكل خير.

4. منهج البحث.

اعتمدت في هذا البحث على المنهجين: الاستقرائي والتحليلي، فأعتمد إلى الصفة تلو الصفة، مستقراً ذلك في القرآن، وأبحث مناسبتها لموضوع الآية.

5. خطة البحث وهيكله.

راعت أثناء الكلام على كل صفة أن أتلكم في كنه الصفة ذاتها، وعن سبب كون هذه الصفة سبباً موصلاً لإدراك البرهان القرآني دون غيرها، ثم بحثت في مناسبة كل صفة لمعنى الآية التي وردت فيها، فهذان شقان هم ركيزتا البحث. وتم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث، مراعيًا في ذلك عدد الآيات التي تشترك في الصفة ومقدار الكلام حولها، فجاءت آيات صفة الإيمان في المبحث الأول، يلي ذلك آيات التفكير والعقل في المبحث الثاني، ثم جمعت آيات السمع، والعلم، والتذكر، والتقوى، في المبحث الثالث، كل في مطلب مستقل، وختمت بثنائيتي: الصبر والشكر، والعبودية والإنابة؛ لتمييز نوعهما عن باقي المجموعة.

المبحث الأول: الإيمان كرافد لإدراك البراهين والدلائل والإشارات القرآنية.

الآيات التي جعل سبيل إدراك برهانها عن طريق الإيمان، هي تسع آيات في الكتاب، كلها في سور مكية، عدا سورتي البقرة آل عمران، وهي -مرتبة على اعتبار ترتيب المصحف-:

1. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248].

2. ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِعُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49].

3. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمُرَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99].

4. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

5. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَّوْا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: 86].

6. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 24].

7. ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: 44].

8. ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 37].

9. ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52].

وسيتم تدارس ذلك في مطلبين اثنين بحول الله.

المطلب الأول: في وصف الإيمان الذي تدرك به الحقائق، وأثر غياب الإيمان في الإنسان.

لعل معنى الإيمان لغة واصطلاحاً من الواضحات التي لا تبغي بياناً، لكن أقول: إن الإيمان لغةً يعني: التصديق⁽¹⁾، واصطلاحاً: هو الإسلام على العموم، وتنصرف إلى أركان الإيمان الستة، على التفصيل المشهور عند أهل العلم، والمراد هنا معنى أدق، وهو ذاك المعنى الوجداني الذي محله القلب، وتلك التجربة الشعورية التي تفتح عين البصيرة، أما رأيت أن عبادات الإسلام تسمى شعائر؟! ذلك أن العبادات أصلها باطني ثم تنعكس ظاهراً، فلما كانت هي شعائر، فهي في أصلها شعور يحدث انفعالاً لدى الإنسان يحمله على العمل، تلكم هي العبودية، وذلك الشعور هو الإيمان، وهو الذي يُمكن الإنسان من إدراك حقائق الأمور، ويتجاوز بالوجود بُعد الدنيا إلى صاحب الملاء الأعلى، ويرد العالم إليه عز وجل، فيرى الكون وما حوى آيات تدل على وجود الحق جل وعلا، ويستخلص العبرة والمغزى من كل عارض ولائح، والإيمان بهذا الوصف هو الذي يُعوّل عليه للاعتبار، وحري بأصحابه أن يخاطبهم القرآن ليدركوا براهينه الخاصة.

والإنسان بلا إيمان، مركب بلا دفة، تقلبه الريح من كل جهة، ويذهب به الموج في كل مكان، حتى يغرق في ظلمات التيه بما صد عن سبيل الله، ولا يصح حال الإنسان -مهما استطال الزمان وتبدلت الأيام- إلا بالإيمان بصاحب الوجود الحق، المهيمن، المسيطر، والمحيط بالزمان والمكان، فيتجاوز به عقبة الدنيا، وبذلك تتحقق الكينونة الإنسانية؛ ذلك أن الإيمان يغيّر نظرة الإنسان لنفسه وللعالم، فكل مؤمن يوفق لإبصار الحقائق، والملحد عين الإيمان فيه ضريرة، فهو في عمى، وهذه طامة الإنسان المادي اليوم، فهو لا يستطيع إدراك ما يدركه الإنسان المؤمن؛ وذلك لأن مذاهب الليبرالية وأخواتها غدت منظومات شمولية، يُفسّر من خلالها الإنسان والعالم، فلم يعد الإنسان هو ذاك المنفوخ فيه من روح الله، ولا هو خليفة الله في أرضه، ولا هو المتلقي للوحي، ولا العالم هو فضاء العمل لإقامة كلمة القسط، ولا هو مسرح آيات الله الدالة على وجوده، وهذه إشكالية خطيرة؛ لأن ما ينتج عنها هو أقول الكينونة الإنسانية، وغياب المعنى الكلي واللازم الأخلاقي للأفعال، فلا اعتبار لوعده ووعيد، ولا امتثال لأمر سماوي سديد.

المطلب الثاني: مسائل الإيمان التي عالجها القرآن من خلال توجيه الاعتبار به.

إن المتأمل في الآيات التسعة التي وجه الخطاب فيها لمن صدق عليه وصف الإيمان، أو قل: التي في الآيات التي عوّلت على الإيمان لإدراك حقائق البراهين التي ساققتها الآية، يجد معانيها منحصرة في إدراك ثلاثة قضايا مركزية، هي:

1- إدراك المعجزة وخوارق العادات، والتسليم بأن الله تعالى هو محدثها.

2- إدراك الحقائق الكونية، وأن الله خالقها، فالخضوع له.

3- الرضا بقسمة الأرزاق.

وهي على وجه التفصيل كالآتي:

1. إدراك المعجزات والتسليم لله.

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (12/294).

إدراك المعجزات وخوارق العادة، ومعها كذلك دلائل النبوة، قد دل عليه قول الله عز وجل على لسان نبي بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248]، وفي قوله تعالى على لسان ابن مريم عليهما السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49]، كذلك في قوله عز وجل في شأن الخليل عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 24]، فأنت ترى جلياً في هذه الآيات أنها في سياق المعجزات؛ فخروج الخليل من النار سليماً - والمعهود عنها الإحراق - أمرٌ يحتاج للإيمان بالله؛ للتسليم بأنه من عند الله، لا من قبيل السحر. والتابوت جاءت به الملائكة تحمله، وكانوا قد فقدوه، فالمعجزة متمثلة في العثور على المفقود فقداً كلياً، وفي أن الملائكة أتت به على حد سواء، وهذا يحتاج للإيمان للتسليم به وردّه إلى الله تعالى، وإلا فإن شواهد التكذيب ورد المعجزات للسحر والشياطين أمر مشهور في أقوام الرسل المقصوص خبرهم في القرآن. وذات الأمر ينطبق على كلام ابن مريم؛ فكل ما حكاه عليه السلام هو خرق للعادة خرقاً كلياً، فإن نفخه في صورة الطائر فيحيا بأمر الله لأمرأ تزيع منه القلوب، كذا شفاء الأمراض المزمنة والمستغلقة على الطب أمرٌ يسهل نسبُه للسحر، وإحياء الموتى، والإخبار بالغيب يفتتن به ضعاف الإيمان، فلذلك ألّهُوا ابن مريم، وأشركوا بالله شركاً عظيماً، ولا يرد هذه الشبهات كلها إلا صاحب إيمان راسخ، ويقين قوي بأن الله عز وجل هو الذي أجرى هذه المعجزات على أيدي الأنبياء، وأنهم عاجزون تمام العجز أن يأتوا بها من عند أنفسهم، لذا كان توجيه الاعتبار في هذه الآيات بوصف الإيمان في غاية التناسب بين المعنى والدلالة؛ لأن الإيمان هو الفارق الوحيد بين التكذيب والتصديق، وبين رد الأمر لله تعالى أو رده للشيطان الرجيم.

2. إدراك الحقائق الكونية والخضوع لخالقها.

إدراك الحقائق الكونية أمر يستوي فيه المؤمن والكافر، فلا علاقة بين الكشوفات العلمية والأحوال مع الله، فقد يبلغ الكافر من العلم الدنيوي ما لا يبلغه الولي الصالح، لكن شتان بين من يرى الكون آيات بينات محشودة، تدل على الوجود الحق، وعلى الرجوع الحتمي إلى الإله الواحد، وبين من يرى الكون قطع ألغاز متناثرة، ولدتها الطبيعة الصماء، لا يستنون. والقرآن الكريم لا يسوق الآيات الكونية سوقاً لذاتها، بل يسوقها ليلفت عقول الناس إلى مكنن الشاهد والبرهان على الوجود الحق، ويذكرهم أن ما قد اعتادوا عليه من تكرار المشاهدة حتى اصطلحوا على تسميته بالطبيعة، إنما هو آيات تدل على تصميم ذكي، وتتجلى فيها العناية الإلهية، والعلم المحيط، والخبرة الفائقة، والقدرة اللامتناهية، وغيرها من صفت الباري - عز وجل - المصبوغة في خلقه، ويظهر هذا المعنى جلياً في الآيات الكونية التي علق الاعتبار فيها بالإيمان، فالمراد هو أن يدرك الإنسان ما وراء هذا الظواهر الكونية، وليس مجرد التحليل والدراسة والفهم، وسبيل هذا الفهم الخاص هو الإيمان.

وحينما ننظر في الآية الكونية الأولى، التي علق إدراكها على وصف الإيمان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79]، صُدِّرت الآية بالاستفهام عن استعمال حاسة الرؤية لملاحظة أمر كوني معين، والآيات المُصدِّرة بحاسة البصر متكررة في القرآن في مواضع شتى ومواضيع متنوعة؛ ذلك لأنه أقوى حواس الإنسان في التوصل للحقائق، وعلاقته بالإيمان مطردة بلا شك، لذا طلب الناس المعجزات المادية من

الأنبياء، ولذا ندب الرب عز وجل إلى السير الاعتباري في الأرض، وإلى النظر في ملكوت الله تعالى؛ لما ينتج عن ذلك من زيادة في الإيمان، فضلاً عن استحداثه إن كان الإنسان ملحداً.

ومهما يكن من أمر، فإن الرب عز وجل يلفت الأذهان في هذه الآية إلى دليل من دلائل وجوده، وذلك متمثلاً في الطيور حال كونها مسخرة في جو السماء، وتسخيرها هو بأن صمم خلقتها بما يتناسب مع وظيفة الطيران؛ من خفة الوزن، وقوة الجناح، إلى غير ذلك مما يفصل فيه علماء الأحياء، قال الزمخشري⁽¹⁾ (ت 538هـ): «مُسَخَّرَتِ»: مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك⁽²⁾.

ولفت الرازي⁽³⁾ (ت 606هـ) إلى مسألة أخرى لطيفة، وهي أن الهواء -الذي هو جو السماء- قد صمم بخصائص معينة تتيح الطيران فيه بسهولة، فنحن نرى تلاؤماً بين بنية الطير وخصائص الهواء الفيزيائية، ويتحقق فيه وصف الله تعالى: «الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»، يقول الرازي: «لولا أنه تعالى خَلَقَ الطَّيْرَ خَلْقَةً معها يمكنه الطيران، وخلقَ الجَوَّ خَلْقَةً معها يمكن الطيران فيه، لَمَا أَمَكَّنَ ذلك، فإنه تعالى أعطى الطَّيْرَ جناحاً يبسطه مرة، ويكسره أخرى، ... وخلقَ الهواءَ خَلْقَةً لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً»⁽⁴⁾.

ثم إن لفظ التسخير يدل على أنها تفعل ذلك جبلة دون تعليم، بل هي غريزتها التي أودعها الرب فيها، وهي تحمي نفسها بذلك من أن يعدو عليها إنسان أو غيره، فكان لها سرعة الانتقال⁽⁵⁾.

ثم يخبر الرب عز وجل أنه من يمسك هذه الطيور حال طيرانها أن تنقل أو تسقط إلا هو، برحمته ولطفه وتوفيقه وما أبدع من الصنعة! ولما كانت هذه آية كونية في سياق العظمة والتدليل على القدرة ذكر الاسم الأعظم، فقال: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»، وإلى هذا أشار البقاعي⁽⁶⁾ (ت 885هـ)، فقال: «ولما كان للسياق هنا مدخل عظيم في الرد على أهل الطبائع وهم الفلاسفة، ولهم

(1) الزمخشري، العلامة، كَبِيرُ الْمُعْتَرِيَّةِ، أَبُو الْقَاسِمِ، مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ، الزَّمَخْشَرِيُّ، الْخَوَارِزْمِيُّ، النُّحْوِيُّ، صَاحِبُ «الْكَشَافِ»، وَ«الْمُقْصَلِ». رَحَلَ وَتَمَعَ بِبَغْدَادَ. وَكَانَ مَوْلَاهُ بِزَمَخْشَرٍ -قَرْيَةٍ مِنْ عَمَلِ خَوَارِزْمٍ- فِي رَجَبٍ، سَنَةِ: 467 هـ. وَكَانَ رَأْسًا فِي الْبَلَاغَةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، لَهُ: «الْفَائِقُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ»، وَ«أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ»، وَ«مُشْتَبِهَ أَسَامِي الرُّوَاةِ»، وَ«الْمَنْهَاجُ فِي الْأُصُولِ». مَاتَ لَيْلَةَ عَرَفَةَ، سَنَةِ: 538 هـ.

(2) الزمخشري، تفسير الكشاف، (624/2).

(3) الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ التِّيمِيِّ الْبَكْرِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ، الْإِمَامُ الْمُفَسِّرُ. أَوْحَدَ زَمَانَهُ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَعُلُومِ الْأَوَائِلِ. وَهُوَ قَرَشِي النِّسْبِ، أَصْلُهُ مِنْ طَبْرِسْتَانَ، وَلِدَ سَنَةِ: ٥٤٤ هـ، فِي الرَّيِّ، وَإِلَيْهَا نَسَبَتْهُ، وَيُقَالُ لَهُ: (ابن خطيب الري)، رَحَلَ إِلَى خَوَارِزْمٍ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخِرَاسَانَ. أَقْبَلَ النَّاسَ عَلَى كِتَابِهِ فِي حَيَاتِهِ يَتَدَارَسُونَهَا. وَكَانَ يُحَسِّنُ الْفَارْسِيَّةَ. مِنْ تَصَانِيفِهِ: «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَ«لَوَامِعُ الْبَيِّنَاتِ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصِّفَاتِ»، وَ«مَعَالِمُ أُصُولِ الدِّينِ». تَوَفَّى فِي هَرَاةَ سَنَةِ: ٦٠٦ هـ.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، (252/20).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (234/14).

(6) أَبُو الْحَسَنِ، بَرَهَانَ الدِّينِ، إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَمْرِ بْنِ حَسَنِ الرُّيَاطِ -بِضَمِّ الرَّاءِ وَتَخْفِيفِ الْبَاءِ- بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْبَقَاعِيِّ، مُؤَرِّخٌ أَدِيبٌ. أَصْلُهُ مِنَ الْبَقَاعِ فِي سُورِيَّةَ، وَلِدَ سَنَةِ: ٨٠٩ هـ، وَسَكَنَ دِمَشْقَ، وَرَحَلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْقَاهِرَةِ، وَقَرَأَ عَلَى ابْنِ الْجَزَرِيِّ. لَهُ: «عُنُونُ الزَّمَانِ فِي تَرَاجِمِ الشُّيُوخِ وَالْأَقْرَانِ»، وَ«أَسْوَاقُ الْأَشْوَاقِ»، اخْتَصَرَ بِهِ مَصَارِعَ الْعِشَاقِ، وَ«الْبَاحَةُ فِي عِلْمِي الْحِسَابِ وَالْمَسَاحَةِ»، وَ«أَخْبَارُ الْجَلَادِ فِي فَتْحِ الْبِلَادِ»، وَ«نَظْمُ الدَّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ»، يَعْرِفُ بِمَنَاسِبَاتِ الْبَقَاعِيِّ، أَوْ تَفْسِيرِ الْبَقَاعِيِّ، وَلَهُ دِيْوَانٌ شَعْرٌ سَمَاهُ: «إِشْعَارُ الْوَاعِيِّ بِأَشْعَارِ الْبَقَاعِيِّ»، وَ«جَوَاهِرُ الْبَحَارِ فِي نَظْمِ سِيرَةِ الْمُخْتَارِ». وَتَوَفَّى بِدِمَشْقَ سَنَةِ: 885 هـ.

وقع عظيم في قلوب الناس، عبر بالاسم الأعظم⁽¹⁾، وبعد هذه الإشارة لما يروونه من حال الطيور بشكل متكرر يكاد يكون في كل يوم، لم يكن الحاجز بين رد الصنعة إلى الله تعالى أو إلى أوثانهم أو ما عبد سوى الله أو حتى الطبيعة إلا إيمانهم، لذا كان مناسباً أن يوجه الاعتبار لمن كان له حظ من الإيمان، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فلا يعرف فضل الله ولا يقر به إلا المؤمن به؛ لأنه يرد كل شيء إلى الله تعالى.

وبمثل هذا الخطاب توجه الآية الثانية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوهُ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: 86]، يلفت الباري - عز وجل - الأذهان بهاتين الظاهرتين - على اعتبارات خاصة تكون فيهما - إلى دليل الوجود والعناية والقدرة، فصَدَرَ الآية متكلاً بامتثانه، فقال: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾، فنسب الأمر لنفسه، لا ألهمكم التي تدعون، ولا الطبيعة الصماء. والليل والنهار ظاهرتان فلكيتان تحدثان على الكواكب حين تعرضها للضوء الصادر من نجومها، فما وافق وجه الشمس فذاك النهار، وظلُّ ذلك هو الليل، وبدوران الأرض يتعاقبان، وبميلانها الطفيف تُقَدَّر فتراتهما، ويبين الرب عز وجل هنا دليل الإرادة والتصميم والقدرة والعناية، فهو يمتن على عباده بأن جعل الليل من أجل أن يسكن الناس فيه، فهذه سنتهم فيه، فهو مصمم بطريقة تخدم هذا الغرض، فهو مهياً في أسباب الراحة والسكون والطمأنينة من خفة حركة الناس، وقلة الأصوات، وإبراد الجو وغير ذلك، وقد جاء في تعبير آخر في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، ويظهر أن الفرق بين التعبيرين هو في قوة تقرير المنّة، فإن التعبير في سورة الأنعام جاء مستغرقاً في المدح والثناء على الباري جل جلاله، فعُبر بصيغة المصدر⁽²⁾، ليطابق وصف الليل السكّن من كل جانب، فهذا فيه إثبات أن الليل يكون فيه مطلق السكون للأرض ومن فيها وما عليها، بينما في آية سورة النمل فإن الرب يُدَكِّر بمنّة خاصة على الآدميين، وهي كون الليل مهياً ومسخرًا لهم ليسكنوا فيه بعد كدّ النهار.

ثم قابل الليل بالنهار، في ثنائية مطردة في القرآن، فلا يكادان يذكران إلا معاً، والأصل في دلالة ذلك، التذكير بدليل القدرة والعناية، ويستشف منهما المفارقة بين الحق والباطل بالإشارة لا بالعبرة، وقد جاء وصف النهار هنا فريداً، فقال عز وجل: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾، وعبر بصيغة اسم الفاعل ليبين قوة وشدة إبصار الخلق دنياهم فيسهل عليهم تحصيل مكاسبهم، فنسب فعل الإبصار للنهار لاشتداد هذه الحاسة فيه أكثر من غيرها فصار كأن النهار هو الذي يبصر، وهذا من فنون البلاغة البديعة، ذات الإمتاع العقلي والوجداني، وهي سمة هذا الكتاب المبارك.

وقد جاء وصف النهار بالإبصار في ثلاثة مواضع سوى هذا الموضع، وهي: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67]، وسيأتي الحديث عنها في مسألة دلالة السمع، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وهنا جاءت الآية مبينة، فذكرت أن ذلك هو لتيسير ابتغاء فضل الله، فبفضل الله نسعى ابتغاءاً لفضل الله، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61]، وهذه شبيهة آية سورة النمل التي تدارسناها آنفاً، وتمت بذلك أربعة كاملة.

(1) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر، (224/11).

(2) الصافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن، (233/7).

ثم بعد هذا البيان الكوني، فإنه لا يسع المنصف إلا أن يرد الأمر لصانعه وبإريه الحق، لا الأوثان الأموات، ولا الطبيعة الصماء، بل الحي الخلاق، بديع السماوات والأرض؛ ذلك لأن وجود الليل والنهار، وتعاقيهما، واختلاف أنظمتها على الأرض، وملاءمة كلٍ منهما نظام أهل الأرض في تناغم متقن، ليدل على مريد خير عليم خبير، هو الذي صمم وأوجد، ويدل كذلك على عناية فائقة، ورحمة واسعة بالمخلوقات، نهتدي لذلك بالعقل المؤمن، ويمنعه الكفر والجحود والعصيان، كذلك يطبع الله على قلب متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. وعليه، فإنه لا يدرك الغاية المرجوة من هذا البيان إلا من اتصف بوصف الإيمان، أو قل: كان الإيمان هو العلامة الفارقة، وهو الرافد الموصول لإدراك هذه الحقائق.

وفي الآية الثالثة يقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ نَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99]، يعدد الباري عز وجل صنوفاً من أعماله وخلقه، فيخبر أنه هو الذي صمم ذاك النظام الدقيق والموزون، فالماء يكون في الأرض ثم يجعله مطراً بعد أن يرفعه في السحاب، فأنزل ماءً عذباً من شأنه أنه صالح للري وسقي النباتات، ثم يمتن بأنه هو الذي أخرج من هذا الماء -بعد أن جعله صالحاً للري-، هو الذي أخرج منه هذا التنوع الهائل في المملكة النباتية، ويدعو عباده للنظر والتأمل في عالم النبات بالتحديد؛ لما فيه من الآيات البينات، ولما كانت هذه كلها مظاهر يلاحظها الإنسان في حياته، كان الفارق الوحيد لأهل الاعتبار بها هو الإيمان، فلولاً الإيمان فإن الإنسان يغفل عن دليل الربوبية في هذه المظاهر، وربما ردها للأوثان، أو إلى الطبيعة الصماء، فيضل عن سواء السبيل، فحقاً إن في ذلكم آيات لقوم يؤمنون.

وفي الآية الرابعة من النوع الثاني يقول الله عز وجل: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: 44]، وحينما ننظر في الآيات التي تخبر عن خلق الله تعالى للسماوات والأرض مقيداً بالحق، نجد هذا المعنى دائراً في الكتاب، فقد جاء ذكر خلق السماوات والأرض بالحق في ستة مواضع أخرى سوى هذا الموضع، وثلاثة آخر زيد فيها لفظ: ﴿وَمَا بَيَّنَّهُمَا﴾، تلك عشرة كاملة، والملاحظ أن في الثلاثة المواضع الوارد فيها زيادة: ﴿وَمَا بَيَّنَّهُمَا﴾ فإنه يرد بعد ذلك ذكر الساعة أو التذكير بحقيقة قدومها، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، فهذا ذكر صريح لحقيقة قدوم الساعة، وكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8]، وما يوم التلاقي إلا يوم القيامة، وكذلك وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3]، ولم ينذروا إلا الساعة وما فيها من وعيد.

بينما في المواضع السبعة الباقية، فإن المعاني في خواتيمها لم تُطَبَّقْ كلها على ذكر الساعة، لكن غلب على أكثرها ذلك، والعلة في ذكر الساعة بعد ذكر خلق السماوات والأرض، يظهر -والله تعالى أعلم- أنه ذكر هيبه على هيبه، فخلق السماوات والأرض أمر مهيب بلا ريب، وليس أمراً اعتيادياً ولا بسيطاً ولا ساذجاً، بل فيه من هيبه الصنعة وإتقانها ما تلجم منه الأفواه، وتحار منه الألباب، وتذهل منه القلوب، فهو تنويه بهيبه خلق الكون على هيبه قدوم الساعة وهيبه لقاء الباري عز وجل فيها،

ووقوع الحساب والجزاء عنده، دل على ذلك تقييد وصف الخلق بالحق، فالحق هو تفرده في خلقهما فلم يشركه في التخليق أحد⁽¹⁾، والحق هو ما فيه من دلائل ربوبيته، وعظم قدرته⁽²⁾، والحق هو إتقانه لصنعتة ومجيئها كلها على الهيئة التي أَرادها⁽³⁾.

أما المواضع الثلاثة التي لم تذكر الساعة ولم تُشر إليها، فهي الآية التي بين أيدينا، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَمَاسُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3]، فنرى أن الرب عز وجل جعل في آية سورة إبراهيم دليل القدرة المطلقة هو خلق السماوات والأرض، فلن يعجزه أن يبيدكم ثم يأتي بخلق جديد يخلف الأرض بدلاً منكم، فهو أمر بالغ في السهولة؛ لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال عز وجل: ﴿خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]، وفي الآية الثانية فإن خلق السماوات والأرض اعتبر دليلاً على الوحدانية والتفرد الإلهي في الملك، فلا يشرك الباري عز وجل أحد في الملك والأمر، لما في الكون من اتحاد في السنن وتناغم بين القوانين، ودقة شديدة في الصنعة مطردة، من أدق وأجل الأجرام وما دون الذرة حتى أخطرها شائناً، وأعظمها وأكبرها حجماً، ولا يُدرك ذلك كله إلا بالإيمان، لذا كان في توجيه الاعتبار به لإدراك هذه الصنعة، ألصق مناسبة، فلا يعرف الحق الذي أُشير إليه في الآيات إلا بالإيمان، ولولا الإيمان فإن الإنسان يرى هذا الكون باطلاً ولهواً وعبثاً، كما هو حاصل مع الإنسان المادي الملحد اليوم، لذى نفى الباري عز وجل هذا المعنى ونسبه إلى الكفر الذي هو نقيض الإيمان، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27].

والمميز أيضاً في هذه الآية كونها ختمت بالإيمان بالصيغة الاسمية، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُؤْمِنِينَ﴾، بينما في الآخر فإنهم خُتموا بفعل الإيمان ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ويظهر أنه لما كان في بعض الآيات تجدد على مر الأيام والذهور ناسب التعبير عن الإيمان بصيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرارية وتجدد الحدث في كل مرة، بينما التي جاء فيها معبراً عن الإيمان بالصيغة الاسمية، فإن ذلك يدل على ثبوت هذا الأمر ورسوخه ولا تجدد فيه، ذلك لأن خلق السماوات والأرض قد تم في الماضي وليس هو أمراً يتجدد كل يوم، بل خُلقت يوم خلقت في الماضي السحيق ثم هي تَمدد وتوسع إلى اليوم، وإن حصل فيه نوع تجدد في نشوء أجزائه، فإن هذا أمر لا يشهده الإنسان فلا يحصل له فيه تجديد آية، فكان التعبير بالصيغة الاسمية أنسب وألصق بالواقع الإنساني.

وحسب الإنسان أن يصل إلى مقاربات تفسر له كيفية نشأة الكون، وليس هنا محل التفصيل العلمي الفيزيائي لذلك، وإنما حسبنا أن كل ما يذكر في هذا الباب فهو أمر معجز أسلمت العقول كلها بإعجازه وعظمته، وإنما حاروا وتماروا في سبب نشأته ووجوده، فضلوا ضلالاً مبيناً، وحادوا عن الحق -عز وجل- حيداً بعيداً، وأتوا بتخرجات عقلية مؤداها أن لا إله، فراراً منه، وأن لا

(1) قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: خلق الله -يا محمد- السماوات والأرض وحده، منفرداً بخلقها، لا يشركه في خلقها شريك". الطبري، ابن جرير، جامع البيان، (40/20).

(2) الزمخشري، تفسير الكشاف، (455/3).

(3) قال ابن عاشور: "الباطل في كل شيء لا وفاء فيه بما جعل هو له. وضد الباطل الحق، فالحق في كل عمل هو إتقانه وحصول المراد منه". ابن عاشور، التحرير والتنوير، (257/20).

سبب غير مادي أو فوق طبيعي أدى لنشأة الكون، بينما المؤمن مطمئن، ويعلم أن ربه عز وجل هو العلة الأولى، وهو سبب كل شيء، وهو صاحب الوجود الحق، الموجد لكل شيء، لذا هو الأول عز وجل، فكان -بهذا الاعتبار- مجيء التعبير بالصيغة الاسمية في هذه الآية بالتحديد أنسب من الصيغة الفعلية، والله تعالى أعلم.

وتمت بذلك مسائل الاعتبار بالإيمان لإدراك الحقائق الكونية، ويترتب عليها الخضوع والاستسلام له عز وجل، لأنه هو الخالق، فهو المستحق للعبادة والإنابة، وإليه يصير الخلائق فيجازيهم على أعمالهم، وهذا المعنى -أعني ارتباط الخلق بحقيقة الرجوع- قد ورد في القرآن، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3] فتأمل.

3. الرضا بقسمة الأرزاق.

وثالث المواضع التي وُجّه الاعتبار فيها للإيمان هو من أكثرها لصوقاً بالطبع البشري، وهي أرزاقهم التي يكون لكسبها، والرضا بها والقناعة بالحظوظ منها مما لا يعين عليه إلا الإيمان، ولا يجبر كسر ألم قلته وعقبته والنوائب فيه إلا الإيمان، وقد وجّه الرب تبارك وتعالى الاعتبار في هذه المسألة للقلوب المؤمنة، فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 37]، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52]، والمفارقة بين الآيتين تكمن بين الرؤية والعلم، وهما وسيلتان تُكتسب بهما المعارف والعلوم اليقينية للإنسان، ويُمكن توجيه الأولى وحمل معنى الرؤية على ما يراه الإنسان من تبدل أحوال من حوله، من اغتناء بعد فقر، وافتقار بعد غنى، وخفض ورفع، ونحو ذلك، فيعتبر ويتعظ ذو القلب المؤمن، ويعلم أنها كلها أرزاق مقسومة، قد فرغ الله عز وجل منها قبل أن يخلقه، ولا يكون للإنسان إلا ما قد مضى في الكتاب، فلا يطول حزن المفقر، ولا يغتر المغتني، ولعله يكف الحاسد.

أما الآية الثانية، فيجوز حمل العلم على ما يتولد لدى المرء من علم قلبي مما يُعائنه من أحوال نفسه، من تبدل أحواله بين الفقر والغنى، ولو كان قليلاً، فلا يجتاز عقبة هذا التقلب في الأرزاق صعوداً أو نزولاً فيه إلا المؤمن المحقق في إيمانه، فهي مرتبة تحتاج إلى مجاهدة ومكابدة حتى يذعن القلب ويسلم ويرضا.

وقريباً من هذا ما قاله الرازي في تفسيره: "أي لم يعلموا أن الكلّ من الله، فالمحقق ينبغي ألا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله، فلا يكون له تبدل حال، وإنما يكون عنده الفرح الدائم، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"⁽¹⁾، فأنت ترى كيف بحث الرازي عن العلة الموجبة لصفة الإيمان من معنى الآية.

وعليه، بان الآن كيف أن في توجيه هذا الاعتبار إلى وصف الإيمان كان فيه ألصق مناسبة لمعنى الآيات، لأنه لا يمكن تحقيق الاعتبار الكامل بها إلا بالإيمان، فالحمد لله الذي أحكم كتابه، وأحسن نظمه ونظامه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، (102/25).

المبحث الثاني: التفكير والعقل كروافد لإدراك البراهين في الآيات القرآنية.

الآيات التي جعل سبيل إدراك برهانها عن طريق التفكير والعقل، هي أربع عشرة آية في الكتاب الكريم، ويلحق بهذا وصف أولي النهى وأولي الألباب، وكلها وردت في سور مكية، ما عدا سورتي البقرة وآل عمران، وهي مرتبة على اعتبار ترتيب المصحف:

1. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].
2. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].
3. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3].
4. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنَاوُنٌ وَغَيْرُ صِنَاوُنٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4].
5. ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الزُّرُوعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 11].
6. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 12].
7. ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67].
8. ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 69].
9. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأُلْبَابِ﴾ [طه: 54].
10. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأُلْبَابِ﴾ [طه: 128].
11. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].
12. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24].
13. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].
14. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجن: 13].

المطلب الأول: في معنى التفكير ومعنى العقل، والعلاقة بينهما.

قال صاحب مقاييس اللغة⁽¹⁾ (ت: 395هـ): «الفَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبُهُ مُعْتَبِرًا»⁽²⁾، وقال صاحب اللسان⁽³⁾ (ت: 711هـ): «الْفَكْرُ وَالْفِكْرُ: إِعْمَالُ الْخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ... وَأَفَكَّرَ فِيهِ وَتَفَكَّرَ بِمَعْنَى...، وَالتَّفَكُّرُ التَّأَمُّلُ»⁽⁴⁾، وقال ابن عاشور⁽⁵⁾ (ت: 1393هـ): «والتَّفَكُّرُ: تَكْلُفُ الْفِكْرِ، وَهُوَ مُعَالَجَةُ الْفِكْرِ وَمُعَاوَذَةُ التَّدْبِيرِ فِي دَلَالَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْحَقَائِقِ»⁽⁶⁾، إذن، فيمكن استخلاص معنى التفكير بأنه هو تلك العملية الذهنية أو القلبية التي يقوم بها الإنسان متأملاً ومحللاً ودارساً ليصل إلى نتيجة وحكم في قضية ما.

وفي معنى العقل قال ابن فارس: «الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يُدْلُّ عَظْمُهُ عَلَى حُبْسَةِ فِي الشَّيْءِ، أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ الْعَقْلُ، وَهُوَ الْحَاسِبُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، ... وَيُقَالُ: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلاً، إِذَا عَرَفَ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ قَبْلُ، أَوْ انْتَرَجَرَ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ»⁽⁷⁾.

وجاء في لسان العرب: «الْعَقْلُ: الْحِجْرُ وَالنُّهْيُ ضِدُّ الْخُمْقِ، ... وَالْعَاقِلُ الَّذِي يَحْبِسُ نَفْسَهُ وَيَرُدُّهَا عَنْ هَوَاهَا، ... وَالْمَعْقُولُ: مَا تَعَقَّلَهُ بِقَلْبِكَ، ... وَالْعَقْلُ: التَّنَبُّهُ فِي الْأُمُورِ. وَالْعَقْلُ: الْقَلْبُ، وَالْقَلْبُ الْعَقْلُ، وَسَمِيَ الْعَقْلُ عَقْلاً لِأَنَّهُ يَعْقِلُ صَاحِبُهُ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي الْمَهَالِكِ أَيْ: يَحْبِسُهُ، وَقِيلَ: الْعَقْلُ هُوَ التَّمْيِيزُ الَّذِي بِهِ يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ»⁽⁸⁾.

فيظهر من هذا أن العقل إنما هو نتيجة مترتبة على التفكير، فلما كان التفكير هو من الوسائل التي بها يتوصل الإنسان إلى الأحكام والقناعات ونحوها، فإن العقل هو نتيجة هذا التفكير، فإن تفكراً في السرقة مثلاً وجد أن فيها ظلماً وبغياً واعتداءً، وأن عاقبتها قبيحة على المسروق منه، وأن سرقة تؤدي إلى مفسدة أعظم من انتفاعه بما سرق، فامتناعه عنها وكرهه لها بعدئذ هو بسبب عقله لمعنى السرقة وأنها خلقٌ ذميم.

كذلك يلاحظ أن من المفارقات بين التفكير والعقل، أن التفكير يحتاج إلى دربة، وإعمال ذهن، وطول نظر، قد لا يهتدي إليه كثير من الناس، وقد لا يقدر على لصعوبته، وحتى الممارسين له قد يقعون في مغالطات منطقية أو مزالق في التفكير لا

(1) ابن فارس، هو الشيخ الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن أحمد، المعروف بابن فارس، اللغوي، الرازي، الشافعي ثم المالكي، المتوفى بالرِّي سنة 395. كان نحويّاً على طريقة الكوفيين، وألف «تفسير أسماء النبي -عليه السلام-»، و«كتاب مقاييس اللغة»، وهو جليل لم يصنف مثله. وله مؤلفات أخر كثيرة.

(2) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (4/446).

(3) ابن منظور، هو مُحَمَّد بن مُكْرَم بن عَلِي بن أَحْمَد الْأَنْصَارِيّ الْإِفْرِيْقِيّ ثُمَّ الْمَصْرِيّ، جمال الدين أَبُو الْفَضْلِ، كَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى رُوَيْفَعِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيّ، وَلَدَ سَنَةَ ٦٣٠، صَاحِبُ «لِسَانِ الْعَرَبِ»، جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ «التَّهْذِيبِ»، وَ«المَحْكَمِ»، وَ«الصَّحَاحِ»، وَ«الْجُمُهرَةِ»، جَوَّدَ مَا شَاءَ، وَرَتَبَهُ تَرْتِيبَ «الصَّحَاحِ»، وَهُوَ كَبِيرٌ، وَمَاتَ سَنَةَ 711 هـ.

(4) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (5/65).

(5) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، نقيب أشراف تونس، وكبير علمائها في عهد الباي محمد الصادق باشا. ولي قضاءها ثم الفتيا، فنقابة الأشراف. له كتب، منها: «شفاء القلب الجريح» في شرح البردة، و«هدية الأريب» حاشية على القطر لابن هشام، في النحو. وتوفي بتونس سنة 1284 هـ.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (26/24).

(7) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (4/69).

(8) ابن منظور، لسان العرب، ج 11، (458-459).

توصلهم للنتيجة الصحيحة، لذا تراه عزيزاً في الناس، أما العقل، فهو لا يحتاج إلى هذه الدرجة من إعمال الذهن، بل تكفي فيه الملاحظة العامة للأمور حتى يدرك الإنسان الأسباب والمسببات مثلاً، قال الرازي: "اعلم أن من الأشياء ما يُعلم من غير تفكير، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة، ومنها ما لا يخرج بالفكر، بل يحتاج إلى موقف يُوقف عليه ومُرشِد يُرشِد إليه، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المُرشِد، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية، كالأشكال الهندسية، لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر، فإذا تفكر غم كَوْن ذلك الخلق آية⁽¹⁾، فيشير الرازي هنا إلى مجيء ما يناسب كل برهان من أدلة الكسب المعرفي، ويتضح هنا جلياً المفارقة التي يراها بين التفكير والعقل، وهي ذات المفارقة التي توصل إليها هذا البحث.

ثم إن الملاحظ في هذا الباب أن المسائل التي وُجه فيها الاعتبار للمفكرين، هو ما كان لا يدرك تناسبه وعلاقته البيئية إلا بالتفكير، وكلها تأتي في سياق التدليل على القدرة المطلقة، ووجود التصميم الذكي، والإرادة الخيرة، والذات العليمة الخيرة، وهي كلها مواضيع تحتاج إلى تفكير ودراسة وتأمل، ومواضيعها في القرآن محصورة في المواضيع الآتية:

1. الآيات الكونية، وتشمل:

■ الأرض وما حوت من جبال وهواء ومياه، ونحوه.

■ الإنبات والتنوع في المملكة النباتية.

2. النظم الحيوانية الخاصة.

3. جوانب من علم الاجتماع.

4. مقارنة بين النوم والموت.

أما المسائل التي وُجه الاعتبار فيها إلى العقل، فإن مواضيعها محصورة في الآتي:

1. إدراك الظواهر الكونية وردها لله تعالى، وذلك في:

1. النظم الأرضية من تنوع بيئي، والاهتداء إلى الانتفاع من الثمرات، ونزول المطر، وظهور البرق.

2. تسخير الأجرام السماوية، كالأرض، والقمر، والشمس والنجوم.

وتحرير المفارقة بين ظاهر التشابه بين مواضيع العقل والتفكير، هو أن آيات التفكير تتطلب جهداً ذهني ودراسة للتوصل

إليها وإدراك حقائقها، وآيات العقل حسبها الملاحظة العامة التي يقدر عليها كل إنسان سليم الحواس.

وقد وُجه الاعتبار إلى وصف (أولي النهى) في سورة طه خاصة دون غيرها، ومعناه قريب من معنى العقل، وسيأتي

الكلام عليه في محله إن شاء الله، والمراد تقريره هنا هو أن المواضيع التي وُجه الاعتبار فيها إلى (أولي النهى) متمثلة في أمرين

اثنين، لا ثالث لهما:

1. إدراك الآيات الكونية في النظام الأرضي المتنوع، ورد ذلك لله تعالى.

2. الاعتبار بأحوال الأمم السابقة.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، (93/25).

ومهما يكن من أمر، فإن سمة ورود هذين الوصفين -أعني التفكير والعقل- يغلب عليهما الاقتران، فإذا ذكر التفكير، فإن العقل يذكر بعده، ولما قرنا معاً، دل ذلك على التناسب بينهما من وجه، وعلى اختلاف بينهما في الدلالة من وجه آخر، كما سيأتي بيان ذلك في المسألة الثانية.

المطلب الثاني: مسائل التفكير والعقل التي عالجها القرآن من خلال توجيه الاعتبار بهما.

المسألة الأولى: التفكير والعقل في مقدمة سورة الرعد.

اشتملت سورة الرعد على جملة من الآيات الكونية المحشودة في سياق التدليل على وجود الحق -عز وجل-، وعلى صدق الكتاب وصدق النبي، فجاءت مقدمتها مكسوة هيبة وجلالاً، ونوهت بمظاهر النعمة والمنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الْجَمْعَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أَنْثَنِي يُغَشِّي اللَّيْلَ الظَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَحَبْلٌ صَنَوْا وَعَرُورٌ صُنَّوْا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْطِلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 3-4]، فنرى أن الرب عز وجل في الآية الأولى أشار إلى ظواهر كونية أرضية، فابتدأ بالامتتان بأنه هو الذي مد الأرض وبسطها فذلّلها لمشي خلقه وسعيهم عليها، ولم يجعلها أرضاً عسيرة الاجتياز والتعمير عليها، ثم عطف على ذكر البسط والمد ذكر الجبال والأنهار، فكيف غدت الجبال راسية شامخة وحولها الأرض مبسوطة ممدودة؟! لا بد من سنة كونية أدت لحدوث هذا الأمر، وهو ما يدرسه العلماء في علوم الأرض، ولهم في ذلك أقوال تدل كلها على عظمة الرب وإتقانه الفائق لما خلق، ثم كيف يحتاج الإنسان ليتفكر وينظر كيف شق النهر الأرض وجرى فيها عذبا زلالاً، فهذا يقال فيه مثل ما قيل في الذي قبله، بمعنى أنها تحتاج إلى علوم خاصة لكشف غمارها.

ثم إن في الآية تناسباً بين عناصرها، أعني: الجبال والأنهار والزروع، فالأنهار تجري من الجبال، تختزن فيه حتى تجد مدخلاً تتفد منه⁽¹⁾ أو تجري منه بعد نزول المطر، فتملأ الوديان وتسقي البلاد والعباد، فلذا ذكر بعد هذا الزرع والثمار، لأنها إنما تنبت بفضل الله، والغالب فيها هو إنباتها بغير كد الإنسان، إنما زرعها الله وأنبتها الله وسقاها الله بمطر الله، وإدراك هذه العلاقة الممتدة على مساحات شاسعة مما يحتاج إلى إعمال ذهن وتفكر ودراسة مطولة، حتى يستنتج الإنسان طبيعة العلاقات بين هذه البيئات المتجاورة.

ثم أشار الباري عز وجل إلى مسألة خاصة في الثمرات، وذلك كونها زوجين اثنين، نوعين وضربين، من ذكر وأنثى⁽²⁾، ويصح فيها قول من قال أنه الحلو والهامض، والصغير والكبير، وذو الألوان المختلفة⁽³⁾، وتقرر الآية أن أقل ما يوجد من كل ثمرة نوعين، فإن وجد أكثر من ذلك فإن الآية لا تمنعه⁽⁴⁾، فكيف تنوعت أشكالها، وكيف اختلفت بنياتها وهي ثمرة من أصل واحد، فهذا كله لا يتوصل إليه إلا بعد إعمال ذهن ودراسة وتفكر، ومثل هذا الإطلاق العام في تقرير هذه الحقيقة العلمية لا يستطيع الإنسان

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، (6/19).

(2) الطبري، جامع البيان، (329/16).

(3) الزمخشري، تفسير الكشاف، (512/2).

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز، (293/3).

القطع به، فلا يستطيع الإنسان أن يَخْلُصَ إلى مثل هذا التقرير الخاص إلا بعد استقراء عام ودراسة لجميع الأنواع، مما يدل على أن هذه الكتاب إنما أنزله خالق الأرض والسموات، ومصممها ومنشئها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولمَّا ذكر ما ذكر من صنوف النعمة وضروب المنة، وكونها نعماً دائمة ثابتة، كرسوخ الجبال، وجريان الأنهار، وأنَّ من كل زوجين اثنين، أشار بعد ذلك إلى نعمة متجددة تُظَلُّ ذلك كله، ألا وهي نعمة تعاقب الليل والنهار، وما يجري فيهما من أمور وسنن خاصة، لولاها لما نزل المطر، ولما خرج الزرع والثمر، فكان من المناسبة العظيمة أن يوجَّه بعد هذا كله الاعتبار إلى المتفكرين، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لأن ذلك مما لا يدرك إلا بطريق التفكير والنظر، فتأمل.

أما في الآية التي تليها فإن الرب عز وجل أشار إلى ظواهر أرضية تدرك بالحس الظاهر والملاحظة العامة، والعلاقة بينهما أظهر من أن يدل علىها أو تدرس لتثبت كما في التي قبلها، وكل من له عقل يدرك وجودها، وإن لم يعلم كيفية حدوثها، فوجود القطع المتجاورات من الأراضي ذات الخصائص المختلفة، كالأرض الخصبة والأخرى السبخة، والصلبة والرخوة⁽¹⁾، جاءت "متحدة البقعة، مختلفة الطبع"⁽²⁾، وهذا موطن الإعجاز فيها؛ "لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة"⁽³⁾، كذلك هو الحال مع التنوع النباتي المذهل الموجود في الحدائق والجنان التي يراها الإنسان في بيئته أو في التي يزرعها، وذاك كون النخيل يخرج فرادى، أو له صنوان بجواره، فهذه كلها أمور مشاهدة، تحتاج فقط لمن يعقل حتى يردها للباري عز وجل، وليس فيها مشقة التفكير.

ثم لفت الرب -عز وجل- إلى محل الإبهار، وهو كون هذا التنوع كله ينفعل من ذات الماء التي تسقى به جميع البذور والزرع، فهذه أمور يعتادها الإنسان من السقاية والحراثة، والتنبيه هو في ألا تدعوا اعتيادكم عليها يصرفكم عن إدراك محل الإعجاز فيها، لكن لا يصير المشار إليهم في الآية آياتٍ إلا في عين من كان له عقل، وفي هذا تعريض بالكافرين الذين ينسبون هذه الأمور إلى الطبيعة أو إلى الأوثان، تعريض بهم بأنهم قوم لا يعقلون، فهم كالأنعام بل هم أضل، لأنهم لا ينتفعون بالعقول التي عندهم.

وخلاصة هذه المسألة: أن الآيتين جاءتتا متعاقبتين في سورة الرعد، فرتب على الأمور المذكورة في الآية الأولى التفكير، لأنها أمور لا يتوصل إلى كونها آياتٍ إلى عن طريق إعمال الذهن، أي: التفكير، وجعل دليل الثانية العقل لأنه هو الموصل إليها على النحو المفصل أعلاه، ومن أدرك الأولى فإن الثانية مُدركةٌ عنده من باب أولى، ومن جهل الأولى فإنه لا تخفى عليه الثانية إن كان من العاقلين. والله تعالى أعلم.

المسألة الثانية: التفكير والعقل في آيات سورة النحل.

سورة النحل لها الريادة في هذا الباب، لأنها زاخرة بالآيات والنعم والمنن، فجاء فيها توجيه الاعتبار لمعظم الأوصاف، فلسان حال السورة كالمنادي على الناس: هلموا إلى الله، هلموا إلى ذي الكمال الذي له صفات الجمال والجلال، وسبحان الذي هو على

(1) الطبري، جامع البيان، (330/16). والزمخشري، تفسير الكشاف، (512/2).

(2) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (278/10).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (86/13).

كل شيء قدير وأحاط بكل شيء علماً، هو ربكم فاعبدوه، ونحواً من هذا يقول البقاعي (ت: 885هـ) في مقصود سورة النحل: "ومقصودها: الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص"⁽¹⁾.

وفي باب التفكير والعقل، نرى أن هذين اللفظين قد تُثِي ذكرهما في السورة، فتارة جاء متعاقبين في آيتين، وفي الموضع الآخر جاء في نفس السياق بينهما آية، على الترتيب التالي: يتفكرون - يعقلون، يعقلون - يتفكرون، وهذه الآيات هي:

1. المجموعة الأولى في سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ • يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 10-12].

2. المجموعة الثانية في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ • وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ • ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 66-69].

جاءت هذه الخواتيم في غاية الاتساق مع المشار إليه في الآيات؛ فأما الآية الأولى، فإن المشار إليه هو أن الماء الذي ينزل من السماء، ما نزوله إلا بعد أن كان في الأرض مالحاً، فصيّرهُ الربُّ برحمته عذبةً فراتاً، وحمله في الغمام، ونقله بالرياح، فأنزله حيث شاء متى شاء لمنافع العباد، وأخبر أن من هذا الماء ما يكون شرباً لكم ولدوابكم ولشجركم الذي تزرعون، ومنه ما يسلكه ينابيع في الأرض، فيخرج به زرعاً تسيمون فيه دوابكم، ثم صرف الانتباه إلى آية إنبات الزروع والثمرات، فهي آية مستقلة في التدليل على وجود الخالق لما فيها من إتقان الصنعة⁽²⁾، كما أن فيها اعتباراً للمعتبرين كون أصلها بذوراً لا حياة فيها، فأخرج الحي من الميت، فهو قادر على إحيائكم بعد أن تموتوا، وقد جاء هذا المعنى صراحةً في القرآن الكريم⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمر في هذه الآية يدور حول ما اصطلاح عليه اليوم في العلم الحديث بدورة المياه في الطبيعة، وقد وصفت الآية شيئاً منه، والمتأمل في هذه الدورة يجدها تكشف عن نظام بيئي دقيق، ينطبق بكل ما فيه باسم الربوبية، ويدل على العناية والمحبة، ولا ريب أن هذا مما لا يدرك إلا عن طريق التفكير وإعمال الذهن، لذا وجّه الاعتبار في الآية إلى المتفكرين، فإذا ما تفكر الإنسان في نظام الأرض، ودرسه وبحث فيه، فإنه يقف على خواص أسرار الله في أرضه، وأفلح من نظر بعين الإيمان فرَدَّ ذلك إلى العليم الخبير، فأمن به قلبه وأسلمت له جوارحه.

وأما الآية التي تليها مباشرة، فإن الربَّ عز وجل ذكر فيها ما يدركه كلُّ عامي، ولا يحتاج إلى تفكر وجهد عقلي حتى يتوصل الإنسان إلى إدراكه، فإن الآية حسبها أن تنبه العقول إلى مظاهر التسخير الخاص الذي يروونه يتجدد عليهم كل يوم دون مجهود

(1) البقاعي، أحمد بن عمر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (2/214).

(2) قال ابن عاشور: "وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربانية؛ فالغرض منه الاستدلال ممزوجاً بالتذكير بالنعمة". التحرير والتنوير، (14/114).

(3) انظر سورة الحج آية 5، فإنه ختم الآية بآية الإنبات بعد همود الأرض ليدل على حقيقة البعث.

منهم، لأن "التسخير عبارة عن القهر والقسر"⁽¹⁾، ويتمثل ذلك في تعاقب الليل والنهار، وآيتهما الشمس والقمر، فنصت الآية على أن هؤلاء مسخرون تسخيراً خاصاً للبشر بدلالة قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾، ولما كان انتفاع البشر بالنجوم محصوراً في الاهتداء في السير في ظلمة الليل، وليس انتفاعاً مباشراً كثيراً ومتعدد كمنافع الليل والنهار وما للشمس والقمر، أخبر أن النجوم كذلك هي مسخرات بأمره عز وجل، وإن لم يكن تسخيرها خاصاً لكم، لكن يحصل لكم منها نفع جزئي، وذلك قوله: ﴿وَعَالَمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]، وفسره في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97].

والحاصل أن الرب -عز وجل- خلق هذه الأجرام وقدرها تقديرًا لحكمة يعلمها هو، ولا يبعد أن يكون وجودها ضرورياً لوجود الحياة على الأرض، بما تبثه من حرارة ومواد كونية أخرى تحفظ استمرارية نظام الكون، ألا ترى أنه حين تقوم الساعة فإنها تتكرر وتقع وتهوي؟! فوجودها في مواقعها وحركاتها وما يخرج منها كلها أمور محسوبة بدقة فائقة، أرادها الله عز وجل وحسبها وأحصاها فليس لها أن تخالفه، والعقل من أكسى قلبه خلّة الإيمان، وردّ الصنعة إلى الباري -عز وجل-، لا إلى الطبيعة الصماء، ولا الأوثان الأموات، فلذا وجه الاعتبار فيها إلى الذين يعقلون، ومن ردها لغير الله فهو من الجاهلين، فما العقل إلا إدراك وجود الحق المبين -عز وجل- فالإيمان به والتسليم له، والعقل نتيجة حتمية للتفكير.

وانتقالاً إلى المجموعة الثانية من سورة النحل، فإننا نرى أن العقل قدّم على التفكير فيها، بينما نرى التفكير قدّم على العقل في سورة الرعد، والمجموعة الأولى من سورة النحل، وفي سورة الروم، ويظهر أن ليس ثمة في ذلك نكتة مطردة، إنما هو المعنى المراد في الآية، فإن كانت علّة إدراك الآيات العقل فهو كذلك، وإن كانت علّة إدراك الآية التفكير فهو كذلك، فترتيب ورود الأوصاف خاضع للمعاني، ويدور معها حيث دارت، ولا تترتب هي عليه، لكن وقعاً لما تكرر نمط معين في ثلاثة مواضع، أي: في ست آيات من أصل عشر آيات في هذا الباب، كان ذلك مسوغاً لمتابعة النكتة في ذلك، وأرى أن مناسبة تقديم التفكير على العقل هو كون التفكير مؤدياً ومسبباً لعقل المعاني بلا ريب، فالمسلم إن اعتبر بعد أن تفكر، فيصح عليه القول: إنه تفكر فعقل، ولهذا المعنى أشار القشيري⁽²⁾ (ت: 465هـ) إذ يقول: "وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة، فأولاً: التفكير، ثم العلم، ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه، فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر، وهو التذكر"⁽³⁾. ويمكن توسيع هذه الدائرة لتشمل المقطع الأول كاملاً من سورة النحل⁽⁴⁾ فنقول: تفكر فعقل، فتذكر، فشكر، فاهتدى.

فإذا تقرر هذا، وأن الأوصاف إنما تتبع المعاني في الآية، فلننظر لم علق الاعتبار على العقل في الآية الأولى من المجموعة الثانية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۖ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 66-67]، فالرب -عز وجل-

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، (187/20).

(2) الإمام، الزاهد، القدوة، الأستاذ، أبو القاسم، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، ولد: سنة 375 هـ. وهو صاحب «الرسالة القشيرية»، و«لطائف الإشارات» وهو تفسير صوفي، و«التيسير في التفسير» وهو تفسير كبير، كانت إقامته بنيسابور، وتوفي فيها سنة 465 هـ.

(3) القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، (287/2).

(4) سورة النحل من آية 11 حتى آية 15.

وجل- في هذه الآية يلفت عناية الثقلين إلى آية من آياته في نظام الخلق، فنوّه بوجود العبرة في السُّقْيَةِ من لبن الأنعام⁽¹⁾، ومن عصير الثمار الطيبة، فهذه أمور يقوم بها الناس اعتياداً منهم في معاشهم، فأدى اعتيادهم هذه الأمور إلى الغفلة عن موطن الآية والإعجاز فيها، لذا نوّه الباري -عز وجل- بمحل الآية والبرهان الدال على وجوده، وأراد منهم استشعار فضله وعظم هذه المنة في كل مرة يحلبون فيها أو يعصرون، فيستذكرون رحمة الباري كيف خلق هذه الأنعام مسخرة لهم، تأكل من صنوف الأطعمة وتخرج لهم لبناً صافياً، وكيف هيأ هذه الثمار وجعلها ميسرة للعصر والانتفاع بها، فلا يُوفَّق لإدراك هذه الآيات إلا من أعمل عقله، واجتاز عقبة الطبع والاعتقاد فردّ هذه المعاني إلى الرحمن الرحيم، حينها يزيد القلب شكراً، ويفيض اللسان ذكراً، فكان في ذلك آية للذين يعقلون، أما المتفكرين فإن تحصيل هذه المعاني أولى في حقهم، وهم لا يكتفون بأخذ العبرة، بل يقفون على حقائق الأمور وكيفياتها الخاصة.

ولذلك ختم الآية التي تليها بوصف التفكير؛ لأنها أمور لا تدرك إلا بالدراسة والتحري، ولا هي من الأمور التي يعايشها الناس فيغفلون عن موطن الإعجاز فيها فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۖ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 68-69]، فمن من العرب كان يتتبع النحل ويعلم سلوكه وطريقته، وأنه يسلك السبل ذللاً قافلاً إلى بيته لا يتوه، ليس هذا من علوم العرب، ولو حدث وعلم بعضه أفراد معينون، فإن جل نظام النحل، وخواص سلوكه مما لا علم للبشرية به وقت التنزيل، بل هو مما توصلت إليه الكشوفات العلمية الحديثة اليوم، بعد دراسة وتتبع لتجمعات كثيرة من النحل حتى استنبطوا سُنَّةَ عيشها وسبيله، فإذا تجلّى هذا المعنى، فلنعلم أن في توجيه الاعتبار للمتفكرين الصق مناسبة، إذ هم أولى من يذعن ويسلم لله -عز وجل- بعد أن يدركوا حقائق هذه الأمور، فويل للذين يعرفون آيات الله ثم يعرضون عنها وعنه.

المسألة الثالثة: مسائل التفكير والعقل في سورة الروم.

كسورتي الرد والنحل، سورة الروم مكية أيضاً، والقرآن المكي جاء مركزة آياته في موضوع تأسيس العقيدة وبسط الأدلة لتصديق الدعوة، فجاءت البراهين محشودة فيها حشداً، ناطقة بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وفيما يتعلق بموضوع البحث، فإن سورة الروم -كما سورة النحل- تعاقبت فيهما الآيات التي وجه فيها الاعتبار إلى صفات معينة في قطعة واحدة، على سبيل أنه لا يتوصل إلى هذه الأمور على الحقيقة إلا من كانت عنده هذه الصفة بارزة، أو قل: إنه يتوصل لإدراك معنى البرهان في الآية خاصة من خلال الصفة المشار إليها أكثر من غيرها، ويلاحظ أن الصفات التي علق عليها الاعتبار في سورة الروم هي: التفكير، العلم، السمع، العقل، ثم الإيمان، ولا يظهر أن ثمة ارتباط بين تعاقب هذه الأوصاف، إنما هي -كما قدمت سابقاً- تتبع معنى الآية على اعتبار أنها هي سبيل تحصيل هذا البرهان على التمام، غير إنه يمكن استنباط تناسب لتوالي هذه الصفات في موضعها.

وفيما يتعلق بموضوع المسألة الرابعة، فإن سورة الروم قد وُجه الاعتبار فيها للتفكير والعقل في آيتين، وهما قوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

(1) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (235/20). وابن عاشور، التحرير والتنوير، (203/14).

يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24].

فأما الآية الأولى، فإنها متميزة في بابها؛ ذلك لأنها تشير إلى جانب مما اصطلاح عليه اليوم بعلم الاجتماع⁽¹⁾، فيخبر الرب عباده بأية من آياته في خلقه، وتؤسس الآية لقضية طالما كانت محل ظلم في تاريخ أهل الأرض، فحسمه وقرر بأن المرأة من الرجل، وأن الرجل للمرأة، فقال: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، فليست المرأة من نافل الخلق، ولا هي عنصر هامشي في المجتمع، وفي المقابل، ليست هي محور العالم ولا مركزه، بل هو تكامل بين الرجال والنساء، والقرآن يشير إلى أن المرأة هي سبب في استقرار المجتمعات، وعلة ارتباطها ببعضها، ولولاها لا يكون اجتماع كامل، ولا يتحقق سكن ولا استقرار، فالزوج يسكن إلى الزوجة، وبينهما تتولد المودة والرحمة، والسكن قيمة عظيمة في المجتمعات، وهو تعبير دقيق جداً، فجعل الأزواج بمثابة الأوطان والبيوت التي تُسكن، وأثر هذا السكن على الصحة النفسية للإنسان أثر فعّال، ولأزلت الدراسات تتوالى في بحث أثر الصحة الأسرية على الفرد والمجتمع، وأن تكوين الإنسان الوجداني والعقلي يتأثر تأثراً مباشراً بتشتته الأسرية. فإذا تقرر هذا، فليعلم أن التوصل إلى إدراك حقيقة البرهان في معنى الآية لا يتوصل إليه على وجه التمام إلا بالتفكير والنظر، وليست هي مجرد الملاحظة العامة⁽²⁾، قال ابن الزبير الغرناطي⁽³⁾ (ت: 708هـ): "لما انطوت من حكمته سبحانه في سبب التنازل والتكاثر على ما أبداه تعالى في خلق الأزواج منا ليحصل السكن وعدم التنافر، ثم غرس سبحانه المودة والرحمة في قلب كل واحد من الزوجين؛ ليلم الالتئام ويحصل التعاون على ما به قوام العيش، إلى ما يتعلق بهذا ويرجع إليه مما لا يحصل على عجائبه ولا يحاط ببعض الحكمة فيه إلا بمداومة الفكر وطول الاعتبار، ناسب هذا إعقاب هذه الآية بوصف التفكير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾"⁽⁴⁾، فكان في ربط المعنى بالتفكير وتوجيه الاعتبار به لصق مناسبة، فتأمل.

وانتقالاً إلى الآية الثانية من سورة الروم المتعلقة بهذه المسألة، والتي وجه الاعتبار فيها إلى العقل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(1) قال ابن عاشور: "هذه آية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام، وهو نظام الأزواج وكيوننة العائلة وأساس التنازل، وهو نظام عجيب، جعله الله مُرتكزاً في الحيلة، ...، وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الصنفين من الإنسان: صنف الذكر، وصنف الأنثى، وإبداع نظام الإقبال بينهما في جبلتهما، وذلك من الدائيات التشبيعية بين الصنفين. وقد أدمج في الاعتبار بهذه الآية امتتان بنعمة في هذه الآية أشار إليها قوله: ﴿لَكُمْ﴾، أي: لأجل نفعكم". التحرير والتنوير، (71/21).

(2) ولهذا المعنى أشار البقاعي فيقول: "﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور، وما يتبعه من المنافع ﴿لآيات﴾ أي: دلالات واضحات على فذرة فاعله وحكمته. ولما كان هذا المعنى [مع كونه] دقيقاً [يذكر بالتأمل] قال: ﴿لِقَوْمٍ﴾، أي: رجال، أو في حكمهم، لهم قوة وجدّ ونشاط في القيام بما يجعل إليهم، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجهدون في ذلك" نظم الدرر، (68/15).

(3) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي، العاصمي، الجباني المولد، الغرناطي المنشأ. محدث، ناقد، نحوي، أصولي، أديب، مقري، مفسر، مؤرخ. ولد ببيان سنة 627 هـ، صنف تعليقاً على كتاب سيبويه، والذيل على صلة ابن بشكوال وسماه: «صلة الصلة البشكوالية»، و«ملاك التأويل في المتشابه اللفظ من التنزيل»، و«شرح الإشارة للباقي» في الأصول، و«كتاب الزمان والمكان»، وله شعر. وتوفي في ربيع الأول بغرناطة سنة 708 هـ.

(4) ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم، ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، (398/2).

[الروم: 24]، فنرى أن موضوعها ينتظم مع الآيات الكونية الأرضية، المدركة بالعقل، والمشاهدة في الطبيعة، يستوي العامي والعالم في إدراكها، وهي مشاهد البرق ونزول المطر من السماء، وذكر الرب - عز وجل - لكل آية حكمة، لينبه العقول الغافلة، والذين اعتادوا على سنن الطبيعة، وغفلوا عن رد الأمر للباري - عز وجل -، فأخبر أنه يريهم البرق خوفاً وطمعاً؛ خوفاً من البرق أن يحرق ويتلف ما يملكه الإنسان أو ذواتهم، فهو هنا بمنزلة النذير، وطمعاً في المطر والخير الذي هو بين يديه، فهو هنا بمنزلة البشير؛ لذا أعقب ذكر البرق بذكر المطر، وبنحو هذا المعنى قال ابن عاشور: «ذَلِكَ يُثِيرُ فِي النُّفُوسِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سَلْطَةً عِقَاباً، وَطَمَعاً فِي أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ خَيْراً لِلنَّاسِ، فَيُطْمَعُونَ فِي نُزُولِ الْمَطَرِ، وَلِذَلِكَ أَعَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ فَإِنَّ نُزُولَ الْمَطَرِ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْأَلْبَالِ عِنْدَ ذِكْرِ الْبَرْقِ»⁽¹⁾، وأخبر أن إنزال المطر يحيي الأرض بعد موتها، فكذاك يبعثكم بعد أن تموتوا، فأين الذين يعقلون هذه المعاني ويردون بها إلى الباري ذي الجلال؟! «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، وما أكثر الذين لا يعقلون!

المسألة الرابعة: آيتا التفكير في سورتي الزمر والجاثية.

أولاً: آية التفكير في سورة الزمر.

يقول الله تبارك وتعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [الزمر: 42]، هذه الآية فريدة في بابها، ذلك لأنها جعلت النوم قسيم الموت، وأخبرت أن النوم يحدث فيه ما يحدث في الموت، وهو خروج النفس من الجسد، إلا أنه في النوم يبقى بينهما ارتباط، وينقطع هذا الارتباط في حال الموت؛ لأنه خروج كلي، وقد لخص هذا المعنى أبو السعود⁽²⁾ (ت: 982هـ) فقال: «أي: قبضها من الأبدان؛ بأن يقطعَ تعلقها عنها وتصرّفها فيها، إما ظاهراً وباطناً، كما عند الموت، أو ظاهراً فقط، كما عند النوم»⁽³⁾.

والعلم الحديث اليوم قد درس عملية النوم في الإنسان دراسة عميقة، وعرفوا التغيرات التي تطرأ على الجسم قبل وبعد وأثناء عملية النوم، ووجدوا فيه آيات بينات، تدل على تصميم متقن، لكن لما كان القوم لا يؤمنون إلا بالدليل التجريبي، تاهوا فلم يعلموا سر هذا التغير الذي يطرأ على الجسد، ولم تتغير هذه الكيمياء في جسم الإنسان، بينما أخبر الرب - عز وجل - أن الذي يحدث في عملية النوم إنما هو خروج لهذه النفس التي تحرك الجسد، هذه هي بداية النوم فعلياً، وما الكيمياء التي تحدث في الجسد وقت النوم إلا تسهيل وتيسير لهذا الانفكاك الذي يحدث بين الروح والجسد، ويغيب وعي العقل ويفارق النفس، ولو قُدر استمراره مع خروجها لوقف الإنسان على سر من أسرار الله - عز وجل -، ورأى كيف تخرج هذه الروح، ورأى جسده ممدداً نائماً، هذا مما لا تكلف فيه، بل هو التخرّج العقلي اللازم لهذا الخروج الثابت في القرآن.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (78/21).

(2) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود، مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية سنة 898 هـ، ودرس ودرس في بلاد متعددة، وهو صاحب التفسير المعروف باسمه، وقد سماه: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، ومن كتبه: «تحفة الطلاب» في المناظرة، توفي سنة 982 هـ، وهو مدفون في جوار مرقد أبي أيوب الأنصاري.

(3) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم، (257/7).

ومهما يكن من أمر، فإن تقرير المقاربة بين النوم والموت، ومعرفة تفاصيل ذلك، وما فيه من إعجاز وإتقان الصنعة والخلقة، ليعد دليلاً على تفرد الله - عز وجل - في الخلق والأمر، وليس الأمر في ذلك لآلهة متعددة ولا إلى طبيعة صماء⁽¹⁾، وعلمنا أنه لا يتوصل إلى حقائق هذه المقاربة إلا عن طريق إعمال الفكر والتدبر والنظر، وليس مجرد الملاحظة العابرة، فكان في توجيه الاعتبار إلى المتفكرين ألصق مناسبة، والله الحمد.

ثانياً: آية التفكير في سورة الجاثية.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: 12-13]، يخبر الرب - جل وعلا - عباده ويمتن على عباده بخلق البحر لهم، فنسب الخلق والأمر والإرادة له - جل وعلا -، فابتدأ باختصاصه بهذا الأمر، لا أوثانكم الأموات، ولا الطبيعة الصماء، فقال - عز وجل -: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ﴾، والتسخير فيه معنى الانقياد والانصياع، فالمخلوقات المسخرة خلقها الله تعالى ليستقيم نظام الحياة على الأرض، دون أي مجهود من أهلها، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه يمكن تطويعها والانتفاع بها، ولولا أن الدنيا مسخرة للآدميين لما استقامت لهم على الدنيا حياة.

ثم بعد تصدير الآية بالاختصاص الإلهي بآية تسخير الخلق، وأن هذا التسخير إنما هو ﴿لكم﴾ أيها البشر، صرّفت ربنا بعد ذلك الاهتمام مباشرة إلى البحر؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ ليلفت إليه عقول الناس، فهو محل ظاهر العناية، وذكر مظاهر هذا التسخير للبحر فقال: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ وهو أن تطفو عليه، ولولا قانون الطفو والخاصية المتيحة لذلك في بنية المياه الذرية لما انتفع الإنسان به، وهذا دليل على وجود إرادة خيرة عليمه خبيرة قديرة، صممت الماء وجلعت فيه هذه الخصائص الفيزيائية لنفع الناس، فإثبات وجود الله - عز وجل - بالمقولات المادية يُثبت من خلال الأخذ بمجموعها وضم بعضها إلى بعض.

ثم ذكر الله - عز وجل - مظهراً آخر من مظاهر التسخير، وهو ابتغاء فضل الله، ولا يعظم نفع ابتغاء الفضل إلا بالمظهر الأول وهو جريان الفلك، وهذا سبب تقديم المظهر الأول ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾، وآخر ذكر ابتغاء فضل الله لأنه مبني على جريان الفلك فيه، وابتغاء فضل الله عامٌ وواسع، فالإنسان قد يرتحل عن طريق البحر ليااسة أخرى، وهو يستخرج منه الطعام والدرر، إلى غير ذلك من مصالح العباد في البحر، ثم على عادة سياق آيات الإنعام والفضل، يختتمها جل شأنه بحثاً على صدق التوجه إليه وأداء الشكر القلبى واللسانى والعملى، فإذا عرفت فضل الله عليك فاشكره، واصدق في توجهك إليه؛ فهو المستحق للعبادة، لا سواه؛ ذلك لأن القرآن لا يذكر المظاهر الكونية لذاتها، بل يذكرها في سياق أنها برهان عملي على وجوده - عز وجل -، وأنها تدل على صفاته، فثمرة ذلك تعبيد الجوارح له، وعبادته وحده.

ثم أخبر - عز وجل - في الآية التي تليها -التي فيها محل الدراسة- بمظاهر كبرى في الدنيا، لم تكن لتوجد لولا وجود البحر، فذكر ربنا أنه سخر لنا ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾، وهي -عندي- هنا طبقات الغلاف الجوى وما حوته من سحب وهواء؛ لتعلقها

(1) وإلى هذا المعنى أشار الطبري في تفسيره لهذه الآية إذ يقول: "ومن الدلالة على أن الألوهة لله الواحد القهار خالصة دون كل ما سواه: أنه يبيت ويحيي، ويفعل ما يشاء، ولا يقدر على ذلك شيء سواه، فجعل ذلك خبراً نبههم به على عظيم قدرته، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فيقبضها عند فناء أجلها". جامع البيان، (298/21).

المباشر بالبحر، أما ما وراء ذلك فليس يمتد إليه سلطان البحر، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ويشمل هذا الأرض وما عليها وما تحت الثرى، ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾، وأرى أن عود الضمير في ﴿منه﴾ يكون على البحر، فهذا أسلك لنظم الآية، فالحديث هنا عن البحر كونه آية من آيات الله الدالة على وجوده ووحدانيته، فكل ما نراه من ملكوت الله في الدنيا، لو تتبعنا نظام الله فيه لوجدناه ينتهي للبحر، أو أن يكون سبب وجوده هو البحر، وكل في الأخير من عند الله تعالى، فلا تنافي⁽¹⁾.

وإنما فصل بين هذه المظاهر في الآيتين؛ لأن الأوليين ظاهران يدرکہما كل آدمي، فرتب عليها الشكر، وأخر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأنه وجه خفي، يحتاج لتأمل وبحث ودراية؛ لأن ارتباطهما بالبحر غير مباشر، فلذلك رتب عليه التفكير ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإذا تقرر هذا، بان أن في تعليق الاعتبار بالتفكير ألصق مناسبة لمعنى الآية. المسألة الخامسة: توجيه الاعتبار إلى وصف (أولي النهي) في سورة طه.

أولاً: في معنى وصف (أولي النهي).

قال ابن منظور في لسان العرب: "النهي: العقل، يكون واحداً وجمعاً،... والنهي: العقل، بالصم، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْقَبِيحِ"⁽²⁾، وقال ابن جرير الطبري: "﴿لَأُولَى النُّهَى﴾ يعني: أهل الحجي والعقول، والنهي: جمع نهية،... وخص -تعالى ذكره-... أولي النهي لأنهم أهل التفكير والاعتبار، وأهل التدبر والاعتاظ"⁽³⁾، وقال البقاعي: "النهي العقول التي من شأنها أن تنهى صاحبها عن الغي، ومن عَمِيَ عن ذلك فَلَا عَقْلَ لَهُ أَضْلاً؛ لأنَّ عَقْلَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ، وَمَا لَا يَنْفَعُ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ"⁽⁴⁾، وقال ابن عاشور: "اسم جمع نُهْيَةٍ -بِصَمِّ النُّونِ وَسُكُونِ هَاءِ-، أي: العقل، سُمِّيَ نُهْيَةً لِأَنَّهُ سَبَبُ انْتِهَاءِ الْمُتَحَلِّي بِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُفْسِدَةِ وَالْمُهْلِكَةِ؛ وَلِذَلِكَ أَيْضاً سُمِّيَ بِالْعَقْلِ وَاسْمِي بِالْحَجَرِ"⁽⁵⁾.

ويظهر من جملة هذه الأقوال أن النهي هي العقول، لكن لما وجه الاعتبار لأولي النهي، صار المعنى منصرفاً لمن تطبع بطابع العقل والزرانة، وصار ذلك سلوكه وسجيته، ويبدو بأن من وصفوا بأولي النهي هم من جمعوا صفات المتفكر المتدبر، المنزوي عن فاسد الأفعال وقبيح الطبائع، فهي مرتبة تجمع المتفكرين والذين يعقلون معاً، وتفضل عنهم بأنها صفة لازمة وطبع لاصق لهم، دل على ذلك أن التعبير جاء بصيغة الفعل المضارع لَمَّا وَجَّهَ الاعتبار للمتفكرين والذين يعقلون قال: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ و﴿يَقُومُ يَعْقِلُونَ﴾، فهم يمارسون هذه الرياضات على تقوّت بينهم في القدرة والتمكن، حتى إذا صار ذلك سجية لهم، وطبعاً فيهم، صدق عليهم وصف (أولي النهي) لما في دلالة الاسم من الرسوخ والدوام والثبوت، والله تعالى أعلم.

(1) ذلك لأن من أهل التفسير من قصر عود الضمير في ﴿جميعاً منه﴾ على الباري -جل وعلا-، واستبعد أو منع كونه يعود على البحر، والصواب -بإذن الله- أنه لا تنافي، فكونه يعود للبحر متوافق مع الكشوفات العلمية الحديثة، وهي في الآخر كلها من عند الله، منه آية منه وتقضلاً، وقد قرئت في القراءات الشاذة: (مئة).

(2) ابن منظور، لسان العرب، (346/15).

(3) الطبري، جامع البيان، (321/18).

(4) البقاعي، إبراهيم بن عمر، (298/12).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (240/16).

ثانياً: المسائل التي وجه الاعتبار فيها لأولي النهى.

قد وجه الاعتبار إلى وصف (أولي النهى) في سورة (طه) خاصة، وبالنظر في الموضوعين فيها، يلاحظ أن المواضيع التي عالجتها هي:

1. إدراك الآيات الكونية في النظم الأرضية المتنوعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: 54].

2. الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: 128].

أما الآية الأولى، فإنها قد جمعت ست آيات كونية في محل واحد، وهذا الحشد كله في سبيل التدليل على مطلق القدرة، وعظم الفضل والمنة، وأن الرب حاضر رقيب شهيد، بصير سميع بعباده، عالم بوجوه المنافع والمضار، فاختار لهم ما تسهل به معيشتهم، فامتن وتفضل ومدح ذاته العلية، وأخبر بأنه هو الذي "جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا مَّهْدًا لِلْسَّيْرِ وَالْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ، بِحَيْثُ لَا نُتَوَّى فِيهَا إِلَّا نَائِرًا يُمَكِّنُ تَجَنُّبَهُ"⁽¹⁾، ثم زاد في المنة وجعل فيها طرقاً يهتدي الناس بها ويسيرونها فيها لمقاصدهم ومنافعهم، ثم ذكر آية إنزال المطر وما فيها من عجائب لمن علم طريقته، ثم نوّه على عملية الإنبات وما فيها من إعجاز تكويني، وذكر معه وجود التنوع النباتي الهائل مما يشق على الإنسان حصره، ويدخل معه وجود الذكر والأنثى فتمت بذلك ستة كاملة، فأعطى وتمنن وتفضل، ولم يأخذ بذلك عوضاً، لكن أراد منهم الإيمان والعبادة؛ لأنه المتفرد في استحقاقه لذلك، فلما تقرر هذا، وكل الصنوف المذكورة في الآية يرونها لا ينكرون شيئاً منها، ولا يجادلون في شيء جاء على خلاف ما قد وصف لهم، كان المتوصل لوجود الله بجملة هذه الأدلة من أولي النهى، الذين يتفكرون ويعملون عقولهم، وينتبهون لها بالتذكير⁽²⁾.

وأما الآية الثانية في سورة طه، فإنها مما جدّ في هذا الباب، فلم يرد الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، ويُعلّق الاعتبار به على صفة (أولي النهى) إلا في هذا الموضع، ولا ريب، فمن كان طبعه الاعتبار والتفكير والتأمل فإنه يعتبر من كل شيء، ويستخلص الحكمة من كل ما يرى ويسمع، فجاء ختام هذه الآية مناسباً لمعناها، فلا يتوصل لمثل هذه الحكم والعبر إلا بالعقل المؤمن، فهو الحامل عليه، وهو الداعي إليه، فغير المؤمن ربما سار في الأرض ودخل مساكن الأولين ينتزه ويبحث عن الآثار والكنوز، ولا يعتبر من خلو الديار وأسباب البوار إلا صاحب عقل مؤمن، أولئك هم أولوا النهى.

المسألة السادسة: توجيه الاعتبار للعقل في سورة البقرة، وإلى وصف (أولي الألباب) في سورة آل عمران.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (236/16).

(2) المصدر السابق نفسه.

وقرنتها في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

أخرت هاتين الآيتين وإن كان حقهما التقديم باعتبار ترتيب السور في المصحف، إلا أنهما جاءتا شبه مطابقتين لشرط البحث، حيث تكمن المفارقة في أنه ليس في فاصلتهما: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ ونحوها، بل جاء أسلوب الآيتين مغايراً لأسلوب السور المكية، فالملاحظ أن في السور المكية يذكر الرب -عز وجل- الشواهد الكونية والأدلة العقلية ونحوها، ويلفت عناية الذهن بما تراه عين الإنسان حوله، ثم يؤكد ويقرر أن في ذلك المذكور قبل اعتباراً لمن كانت هاته صفته، بينما نرى في هاتين الآيتين في السورتين المدنيتين أن الباري -عز وجل- صَدَّرَ الآيتين بالتأكيد بحرف النسخ (إِنَّ) وأعقبه بحرف الجر، وكل ما تسمعه الأذن بعده تسمعه على تشوف والنفس تتساءل: ما به؟ ماذا فيه؟ حتى إذا انقضى ذكر المراد التنويه عليه، ختم الآية وأتى بالجواب: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وفي ذلك من مقامات البلاغة وأحوالها ما هو معروف ومقرر عند أهلها، ومن جانب آخر، فإن غرض هاتين الآيتين يظهر -والله تعالى أعلم- أنه تأكيد لما تقرر سابقاً في السور المكية، وليس القصد تأسيس لفت العناية والانتباه له، فسياق التأكيد فيهما يوافق جو المحاجة والجدال العقدي الدائر في السورتين، كما أن فيه تنكيراً لمن سهى أو غفل؛ ليوم استذكاره بعدهما.

ثم إن في توجيه الاعتبار للذين يعقلون في سورة البقرة جاء مناسباً لغرض الآية، فهي قررت، وذكر مشاهد ومظاهر يراها الإنسان حوله في دنيا معاشه، وذلك في العناصر الآتية:

1. كل ما في السماء والأرض من خلق.
2. كل نوع اختلاف بين الليل والنهار.
3. جريان الفلك على الماء لنفع الناس.
4. نزول المطر وإحياء الأرض بعد موتها.
5. حركة الريح وتقلبها، وجريان السحاب فوقهم.

كل هذه الأمور، هي أمور حسية ملاحظة ومشاهدة، طولب الإنسان بتأملها، والنظر في سنتها، وقانونها، وكيفية استقامة الحياة بهم، ولولا هذا التسخير لبادت الحياة على الأرض، فهذه الأمور فرادى ومجتمعين، كل يدل على وجود رب رحيم مدبر مريد قدير، ومن كانت هذه قدرته فلا يعجزه أن يعيد الخلق إليه بعد أن يفنوا، ولا يدرك هذه المعاني إلا من أعمل عقله وتأمل، ذاك هو العقل المؤمن الفطن، الذي يرى الله في كل شيء.

ثم التي في سورة آل عمران، نرى أن فيها ذكراً لمجموعتين فقط من أصل خمسة كانت في قرينتها التي في سورة البقرة، وذلك هو خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ثم وجه الاعتبار لأولي الألباب، هم أصحاب العقول، وهم أولو النهى، ويُشعر لفظ (اللب) بمعنى الفطنة، والحكمة، والعمق الروحي، ويظهر أن المراد ليس هو الآيات الكونية بحد ذاتها، بقدر ما هو ما أتى بعدها من مدح وثناء لأولي الألباب، لذا جاء ذكرها مختصراً، والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث: السمع والعلم والتذكر والتقوى كروافد لإدراك البراهين في الآيات القرآنية.

بلغ مجموع آيات هذا المبحث ثمانين آيات، وقد جمعناها معاً في مبحث واحد لقلة ورودها في الكتاب مقارنة بالصفات الأخرى، وسيتم ذكر آيات كل صفة في مطلبها.

المطلب الأول: مسائل السمع التي عالجها القرآن من خلال تعليق الاعتبار به.

الآيات التي جعل سبيل إدراك برهانها عن طريق السمع هي أربع آيات في الكتاب، كلها في سور مكية، وهي مرتبة على اعتبار ترتيب المصحف:

1. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67].
2. ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65].
3. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23].
4. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26].

وفي المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: منزلة السمع من الحواس.

ذُكرت مادة السمع في القرآن الكريم في نحو من مئة موضع واثنين، والغالبية العظمى من هذه الآيات تم تقديم ذكر السمع على ذكر البصر في سياق الآية، فكان هذا هو الأصل العام في السياق القرآني، والآيات التي قلبت هذا الترتيب العام الملاحظ، فإنما يكون ذلك لاعتبار خاص متعلق بسياق تلك الآيات، استوجب تقديم ذكر البصر على ذكر السمع، وإنما تستنبط القواعد -وما في حكمها- من الأمور العامة والمطرودة، وعليه، يصح القول: إنه لما قَدِّمَ ذكر السمع على البصر في عموم آيات الكتاب، دل ذلك على أهمية هذه الحاسة، وتميزها النوعي على حاسة البصر فيما يتعلق بأمور الإدراك والكسب المعرفي، وهذا واقع مشاهد، فإن الإنسان إذا عمي وبقي متمتعاً بسمعه، فإن ذلك لا يحول بينه وبين التعلم، فكم رأينا من عالم تحرير وهو كفيف، لكن إذا سلب الإنسان سمعه، فإنه يسلب القدرة على التعلم، ويكون الكسب المعرفي عليه متعذراً أو عسيراً، ولم يوجد حل للصم إلا ما جدَّ في زماننا من أساليب أتاحت لهم التواصل مع العالم، ويبقى وضع الصم المبصرين أقل رتبة من الكفيف السميع، فإن الأخير أوفر حظاً في كسب العلوم والمعارف.

فإذا تقرر هذا، فلا ريب أن يولي القرآن السمع أهمية كبيرة، لاسيما في موضوع إدراك الرسالة التي جاء بها؛ ذلك لأن القرآن الأصل فيه تداوله بالمشافهة، سواء للتعليم أو للمحاجة، ولم تكن الكتابة -وقت التنزيل- هي العمدة في هذا الباب، بل الكتابة -وشرطها الإبصار- إنما اكتسبت أهمية في ظرف خاص متعلق بحفظ القرآن وتوثيقه، لكن إعجاز القرآن، وروعته إنما تدرك -لأول وهلة- من خلال سماعه بالأذان، فما إن يقرع الأذان حتى يشق طريقه للقلب شقاً شقاً، والشواهد على ذلك كثيرة ومتظافرة من القرآن والسيرة، وأظهر من أن يدل عليها.

والمراد تقريره هنا في هذه المسألة هو كون السمع أفخم شأناً فيما يتعلق بموضوع الكسب المعرفي، والوقوف على البراهين والاعتبار منها للتوصل إلى حقائق الإيمان، لذا وجه الباري -عز وجل- وجه الاعتبار إلى هذه الحاسة في أكثر من موضع في كتابه، ولم نر مثل هذا الأسلوب قد استعمل مع حاسة البصر، فلا يوجد في القرآن نحواً من: إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون، لكن يوجد في الكتاب إنكار على من لم يعمل بصره ويدرك الدلائل الواضحات، وذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: 27]، فأنت ترى أن سياق الآية هو استفهام استنكاري لهؤلاء الذين لا يبذلون أدنى مراتب الفكر والنظر في آيات الله ودلائل عنايته وقدرته.

فإذا تقرر هذا، فإنه يمكن القول بأن المراد بالسمع في هذه الآيات هو ناتجه، أي العقل، فلما كان السمع موصلاً للعقل كونه حاسته وسبيله لكسب المعارف، عبر عن الغاية بسبيلها، ويكون معنى أفلا يسمعون هو كمعنى أفلا يعقلون، ومن ناحية أخرى، يمكن تقدير مفعول فعل السمع، ونقول أفلا يسمعون البرهان فيعقلونه، أو أفلا يسمعون آيات الله فيفهمون مراد الله منها، ونحو ذلك من التقديرات، وهذه المناحي نحاها أهل التفسير، كالطبري إذ يقول فيها: "﴿لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بأذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته." (1) فنرى أن الطبري هنا أراد السماع مع القلب الحاضر، وسماع الاعتبار والعقل، وبنحو هذا المعنى عبر الزمخشري، فقال: "﴿لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع معتبر مذكر" (2)، وغيرهم من أهل التفسير أيضاً قال بمثل هذه العبارات، وجمع البقاعي بين الأمرين، فوضح أنه استخدم السماع ليجمع بين استعمال الشيء في حقيقته ومجازه، يقول: "فهو من سماع الأذن وما ينشأ عنه من الإجابة، استعمالاً للشيء في حقيقته ومجازه" (3)، ويعني بذلك السماع الحقيقي، والسماع بمعنى العقل والفهم، وهو في الحقيقة ناتج عنه، ومهما يكن من أمر، فإن استخدام حاسة السمع دون غيرها في هذه الآيات بالتحديد لابد أن يكون له مناسبة حتمته؛ ذلك لأن آيات الله محكمة، وألفاظها مرادة لذاتها، وهذا ما يسعى البحث للكشف عنه.

المسألة الثانية: المواضيع التي غُلق الاعتبار فيها بالسمع.

عند تأمل الآيات التي غُلق الاعتبار فيها بالسمع، نرى أنها تشترك مع الوسائل الأخرى، كالعقل والتفكير وحتى الإيمان، في المواضيع التي تعالجها، ولم تستقل في موضوع خاص بها، مما قد يدل على تابعة هذه الوسيلة للوسائل الأخرى، أو هي تفرع عنها، أما المواضيع التي عالجتها الآيات فيمكن ردها إلى موضوعين أساسيين:

1. الآيات الكونية، وفيها:

- آيتي الليل والنهار وأمر متعلقة بهما مثل:

▪ السكون في الليل، وطلب المعاش في النهار.

▪ النوم في الليل والنهار.

- إحياء الأرض بالمطر بعد موتها.

2. الاعتبار بأخبار الأمم السابقة.

وابتداءً من الآيات الكونية، وفيما يتعلق بالليل والنهار، يقول الباري - عز وجل -: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبَتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23]، والعمدة في استخدام السمع دون غيره هو ما تنبّه إليه ابن عاشور، إذ ذهب إلى أن هذه الأمور المشار إليها في الآية مما لا يطلب فيها كبير تفكير، بل يحتاج فيها إلى أبسط التفكير، فيقول: "ووصف لقوم بأنهم يسمعون إشارة إلى أن تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمل فيها، وأن توجه التفكير إلى

(1) الطبري، جامع البيان، (145/15).

(2) الزمخشري، تفسير الكشاف، (358/2).

(3) البقاعي، نظم الدرر، (192/11).

دَلِيلُهَا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَّا إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا وَلَفَتْهُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا كَانَ سَمَاعُ تَذْكِيرِ اللَّهِ بِهَا هُوَ الْأَصْلُ الْأَصِيلُ فِي اسْتِخْرَاجِ دَلَالَتِهَا وَتَفْرِيعِ مَذْلُولَاتِهَا عَلَى تَقَاوُتِ الْأُدْهَانِ فِي الْفِطْنَةِ وَتَرْتِيبِ الْأَدِلَّةِ، جَعَلَ آيَاتِ دَلَالَتِهَا حَاصِلَةً لِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ⁽¹⁾، وبمثل هذا المعنى عبر البقاعي قبله، وفرّق بين استعمال السمع والبصر، إذ يرى أن آيات البصر مما يحتاج فيها إلى أعمال العقل أكثر منها في آيات السماع، فيقول: "والحاصل أن هذه الأدلة لا تحتاج مع الحس إلى كبير عمل بالقلب غير الانقياد إلى الحق، وترك العناد والجهل، فهو من سماع الأذن وما ينشأ عنه من الإجابة، استعمالاً للشيء في حقيقته ومجازه، ولعله لم يختتمها ببصرون لئلا يظن أن ذلك من البصيرة، فيظن أنه يحتاج فيها إلى كبير فكر فيفوت ما أريد من الإشارة إلى شدة الوضوح."⁽²⁾

ويظهر هذا المعنى جلياً وقت تنزيله على الآيات، فكون البشر في الليل وجعله ارتياحاً للإنسان بعد كدّ النهار لأمر يدركه جميع البشر، شعروا بذلك أم لم يشعروا، كذلك في جعل النهار وقتاً للكسب والعمل وتهيئته لذلك، كذلك نوم الإنسان فيها -دون حجب الأمر على الليل دون النهار- فيه منة وغاية تدليل وتسهيل، وفي كل هذه الأمور لا يُحتاج إلا إلى تنكير بسيط لينتبه الغافل، ويخرج الإدراك من اللاشعور إلى الشعور، فإذا ما سمع الإنسان هذا الآيات تنبّه لمعانيتها وتقطن لها، فيعقلها، فيؤمن للباري قلبه.

وكذلك القول في قوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65]، فلما كان هذا المعنى دائراً في كتاب الله -عز وجل-، وكانت آية إحياء الأرض بعد آية إنزال المطر مما يألفه الناس ويعرفونه، لم يحتج في هذا الموضع في سورة النحل إلا لمجرد التنبيه والتذكير؛ لأنها سورة حُشدت فيها دلائل الفضل والمنة وبراهين التفرد في الألوهية والربوبية في مطلع السورة، فلم يحتج في وسطها إلا التنبيه بالسماع، فنبه الغافل، وحرّص على المؤمن، وأشاد بالذين يسمعون سماع التدبر والتعقل، فيحدث لهم بعد ذلك إيمان وتسليم لرب النعمة -عز وجل-، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [لق: 37]، وتفرقاً بين هذه الآية وبين ما جاء في مقدمة سورة النحل من ذكر إنزال الماء من السماء وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10]، أقول: إن الفرق بين السياق الأول والثاني هو في الغاية والغرض، فالأولى جاء في سياق التدليل وإثبات التفرد في الألوهية والربوبية، وأن لا أحد يفعل ذلك إلا الله تعالى، لا آلهتكم التي تدعون من دونه -عز وجل-، لذلك أعقب ذكر هذه الدلائل التهكم بالهة المشركين الميتة التي لا تملك لنفسها شيئاً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17] وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: 21]، وأشار إلى هذا المعنى ابن عاشور إذ يقول في تفسيره لهذه الآية: "فَكَانَ كَرُّ إِنْزَالِ الْمَاءِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَسَاقَ الْإِسْتِدْلَالِ، وَهُوَ هُنَا مَسَاقُ الْإِمْتِنَانِ بِنِعْمَةِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ خَالَفَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ سَابِقاً: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [سورة النحل: 10] بِاخْتِلَافِ الْغَرَضِ الْأُولِيِّ، فَهُوَ هُنَاكَ الْإِسْتِدْلَالُ بِتَكْوِينِ الْمَاءِ، وَهُنَا الْإِمْتِنَانُ"⁽³⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (228/11).

(2) البقاعي، نظم الدرر، (192/11).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (197/14).

بينما نجد الآية الثاني التي نتدارسها، أعني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65]، نجد هذه الآية تتميز في سياقها بما فيها من حسن تخلص من موضوع إلى آخر مختلف، دون شعور بانقطاع أو نبوة وجفوة، وذلك بما ذكر فيها من إشارة للبعث والجزاء في صورة إحياء الأرض بعد موتها، وهذا مناسب لما جاء قبل الآية من تقرير الكافرين وذم وأدهم البنات وشركهم، فكأن المعنى، كما أني أحبييت الأرض بعد موتها في دنياكم، فإني أعيدكم بعد فنائكم، فأجازيكم على أعمالكم السيئة، ويتوب الله على من تاب، ولما كانت الآية فيها إشارة إلى دليل كوني حسي، أعني: صورة نزول المطر وإحياء الأرض الميتة، ناسب ذلك الانتقال بعده إلى ذكر الأنعام وغيرها، فله الحمد على ما أحكم من نظم الكتاب.

ويظهر أن القدر المشترك الذي تعالجه صفة السمع مع الصفات الأخرى يكمن في الموضوع، غير أن مستويات المعالجة تتفاوت، فالتفكر هو عمدة الباب وأشدّه، يليه العقل حيث لا يطالب معه إلا الملاحظة العامة، وأضعف من ذلك كله هو السماع، إذ هو سبيل العقل، ولما كان العلم الذي يحصل منه دون مجهود ذاتي صار أقل من العقل بهذا الاعتبار، فالذي يعقل الآيات والبراهين الكونية إنما هو لفطنة فيه وصفاء ذهن وإقبال نفس، والسماع دون ذلك، فقد يكون الإنسان غافلاً ويحتاج إلى سماع لينتكر ويتعظ، لذا أقول -والله تعالى أعلم- إن الباري -عز وجل- خاطب جميع عقول الثقلين باختلاف مستوياتها، فالنبيه الفطن الذي يبحث من نفسه في أسرار الوجود، خاطبه بالتفكر وأشبع عقله بذلك، ومن هو دونه خاطبه بالعقل، وأثار فضوله بذلك، ومن هم دونهم، فذاك هو الغافل الذي لا يفطن بنفسه، لكن يحتاج لمن يخبره ويذكره، فهؤلاء نبههم بالسماع، وخاطبهم بأظهر الأمور وأقربها لحياتهم، وما لا يحتاجون لإدراكه سوى السماع لينتبهوا له، والحمد لله.

أما الآية الآخرة في هذا الباب، وذلك قوله -عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26]، فإن مناسبة السماع لمعنى الآية مناسبة ظاهرة، وذلك أن أخبار الأمم السابقة إنما تتناقل سماعاً من أحاديث الناس، جيلاً بعد آخر، حتى تنتهي إليهم، وذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: 44] ومثيلتها في سورة سبأ، ولمثل هذا المعنى أشار البقاعي إذ يقول: "﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم ﴿لَآيَةً﴾ أي: دلالات ظاهرات جداً، مرثيات في الديار وغيرها من الآثار، ومسموعات في الأخبار، ولما كان السماع هو الركن الأعظم، وكان إهلاك القرون إنما وصل إليهم بالسماع، قال منكراً: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾" (1). وبهذا تمت آيات صفة السماع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني: مسائل العلم التي عالجه القرآن من خلال تعليق الاعتبار به.

الآيات التي جعل سبيل إدراك برهانها عن طريق العلم في آيتين في الكتاب، كلتاهما في سور مكية، وهي مرتبة على اعتبار ترتيب المصحف:

1. ﴿قَتَلْنَاكَ بَيُّوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 52].
 2. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22].
- وفي المطلب مسألتان:

(1) البقاعي، نظم الدرر، (268/15).

المسألة الأولى: في منزلة العلم من الإيمان.

لا ريب أن للعلم في نفوس البشر منزلة عظيمة، وحب ذلك مركز في الفطر السليمة، وفي كل المجتمعات عبر التاريخ، تنبأ العلماء منزلة اجتماعية خاصة، كما قاربهم الملوك والوجهاء، سواء كانوا علماء حق أو باطل كالسحرة وغيرهم؛ ذلك لأن النفوس البشرية متشوفة للعلم، وتفاخر بصحبة أهله، وترى في كسبه شرفاً، فإذا كان هذا حظ العلم والعلماء في الدنيا، فإن الدين قد أولاهم عنايته، وأسبغ عليهم فضله، وكساهم من هيئته، وأوجب عليهم أداء أمانته، ووعدهم بمراتب عليا يرفعهم الله إليها دون غيرهم، جزاء لأخذهم العلم وأداء حقه، من ذلك قوله -عز وجل-: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، وفي اقتران اسمهم مع اسم الملائكة في الشهادة الحقة في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18] دليل على رفعة مكانتهم وقدرهم، كذلك قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]، وغيرها.

والشاهد في ذلك، أن العلم منجاة للإنسان من المخاطر؛ إذ به يُبصر درب المفازة، ويقود نفسه ومجتمعه إلى مرسى الأمان، وهل كان الأنبياء إلا سادة العلماء وأشرافهم، إذ أبصروا الحقائق بنور الله تعالى، فكانوا مشاعل إيمان، هداة للناس، بهم أخرج الله عباده من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، وكذلك العلماء ورثة الأنبياء، وحسبهم من هذا الهدى والنور، بحسب ما اغترفوا واقتفوا من درب الأنبياء.

فإذا تقرر هذا، فلنعلم أن من أعظم سبل زيادة الإيمان والترقي فيه هو العلم، ومن ذلك العلم التجريبي الذي يكون في المختبرات العلمية، ومثله العلم التجريبي الذي يحصّله الإنسان من التجربة العملية في معترك الحياة، وسمها إن شئت التجربة الإيمانية، فبعلم الإنسان بما أخبر الوحي من سنن الابتلاء وما أعدّه الله للصابرين فإنه يتأسى بما علم، فيفلح ويترقى في مدارج السالكين، وإلا فإنه بجهله يدسي نفسه ويوردها المهالك، فلذلك كان لتوجيه الاعتبار بالعلم منحى خاص به حتم ارتباطه بمعنى الآية، وهذا ما سيتدارسه البحث في المسألة الثانية.

المسألة الثانية: المواضيع التي علق الاعتبار فيها بصفة العلم.

الأول: هو الاعتبار بمصير الأمم المكذبة السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 52]، وهذا مشابه لما جاء مع صفة السمع، لكن لما أشار في هذه الآية -في سورة النمل- إلى البيوت ومساكنهم الخاوية الشاهدة على زوالهم بالعذاب، استشعر معنى الرؤية والمشاهدة ولو كانت على سبيل التصوير والتخييل الذهني، فالسامع للآية وإن لم يرها فإن آثارهم موجودة يستطيع أن يقف عليها بنفسه، فمن أجل ذلك ناسب ترتيب العلم عليه، فهو علم يحصل للإنسان وسبيله البصر للشاهد و البصيرة للغائب، وليس الاعتماد هنا على السماع وتناقل الأخبار والأحاديث فحسب، والمفارقة هنا، تكمن في أن العلم الذي سبيله البصر أقوى دلالة مما كان سبيله السمع، فالسمع دلالة ظنية إلا إن كان عن عدول ثبوت، أو من الوحي مباشرة، فيقطع به، ويبقى العلم الذي طريقه الإبصار أقوى دلالة في النفوس وأدعى للاعتبار، لذا ناسب ذكر العلم دون السمع في هذا الموضوع، وقد ورد هذا المعنى، أعني: الاعتبار والاتعاظ برؤية مواطن الأقوام السابقين، جاء صريحاً في سورة الفرقان إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَلَمَ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: 40]، فإذا تقرر هذا المعنى، بأن وجه المناسبة الدقيق بين معنى الآية وصفة العلم، والله تعالى أعلم.

والثاني: هو عملية خلق الكون، واختلاف لغات الإنس، وألوان بشراتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفَ السِّنِّيَّكُمْ وَالْوَنِيَّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22]، أما العموم في خلق السماوات والأرض، فذلك بسبب أن الآيات فيهما لا يحصيها بشر، ولعل المشار إليه في الآية هو عملية خلق الكون نفسه، إذ الكون هو السماوات والأرض، وليست السماوات والأرض إلا هو، ولا ريب أن حدوث الكون من عدم هو من مشكلات علماء الحضارة المادية، مع إجماعهم على هيبة هذا الحدث الجلل، أعني لحظة وجود الكون وانشطاره، وما لزم سلفاً لحدوث ذلك من معيار دقيق لا يستطيع عليه إلا إله، ثم ما نتج بعد ذلك من تحكم تام في تفاصيل ذلك الانشطار المهول، ولم يكن عبثاً ولا متهوراً ولا مدمراً، كل ذلك وغيره مما يُفصل فيه أهل الفيزياء، أقول: لولاه لما نتج الكون بصورة تسمح له باحتضان الحياة فيما بعد، مما يدل على أن الكون كان مُقدراً له الحدوث والاستمرار، ومصمماً ومضبوطة مقاديره بشكل دقيق ليكون كوناً قائماً على قانون يسمح بوجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة فيه فيما بعد، لذا كان خلق السماوات والأرض آيةً بحق من جميع الوجوه والاعتبارات، ولا يدرك ذلك إلا العالمون⁽¹⁾، ولا يتوصل لذلك إلا عن طريق العلم، ولا ريب بعد ذلك أن يتواتر ذكر السماوات والأرض في الكتاب، بل يخبر الرب صراحة أنهما من كبرى آياته في الوجود، واستصغار خلق البشر أمام خلقهما، قال الله تعالى: ﴿خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]، ونرى أن ختام هذه الآية جاء مؤكداً لمعنى أن سبيل إدراك آية خلق السماوات والأرض إنما يكون بالعلم، وهذا موافق لختام الآية التي نحن بصدددها، التي جعلت سبيل الاعتبار في هذا الموضوع إنما يدور حول العلم، والله تعالى أعلم.

أما القسم الثاني من الآية، والذي يخبر عن تنوع عجيب، وسر من أسرار قدرة الله في خلقه وعجيب صنعه، وهي قضية اختلاف اللغات وألوان البشر، وكل واحدة منهما علم قائم بذاته، أما الأول، فهو ما اصطلاح عليه اليوم بعلم الأناسة أو الأنثروبولوجيا ومنه علم اللسانيات، التي تدرس في مستوى من مستوياتها، اختلاف لغات البشر وتشابهها في المخارج والأصوات، وأصول الكلمات، وقد تعددت النظريات الساعية لتفسير كيفية نشوء اللغة، وأبعد بعضها في الباطل والتخريص، فقالوا: إن اللغة أصلها اعتباطي، وهذا التفسير قد يكون مستساغاً لمن لا يؤمن بمرجعية الوحي، لكننا المسلمون، نسلم للوحي ونؤمن به، ونؤمن أن آدم -عليه السلام- قد علمه الله -عز وجل- لغة وبها خاطبه، وبها كلم الملائكة في الملأ الأعلى، وبها تواصل مع زوجته حواء، الله أعلم بماهية تلكم اللغة، ولا دليل على كونها عربية أو سريانية أو غير ذلك، ولا يضر الجهل بماهيتها، فالمهم هو إثبات أن اللغة لم توضع اعتباطاً، بل هي أمر غير بشري، وذات أصل سماوي، ولنسمها اللغة الأدمية تجوزاً، ثم تفرعت اللغات من تلكم اللغة الأدمية الجامعة لأصول لغات البشر اليوم.

ومن المهم لفت الأذهان إلى أنه قد تم تصميم البشر بطريقة تتيح لهم النطق والتعلم، فيذهب علماء الأحياء والتشريح إلى أن البشر ما كانوا ليكونوا قادرين على النطق إلا بسبب البنية الخاصة التي عندهم في البلعوم واللسان، في أمر يميزهم عن سائر الحيوان، لذا جعل الله -عز وجل- نطق البشر آيةً في ذاته تدل على أنه واحد، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23]، فكون النطق حقيقةً مميزة للإنسان أمرٌ مسلم به، لكن لما خُص بالذكر دون غيره من الصفات

(1) قال ابن عطية: "أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم". المحرر الوجيز، (4/333).

العظيمة -كالإبصار ونحوه-، مع ما صاحبه في سياق الآية من جو الهيبة، دل ذلك على تميز صفة النطق في الإنسان، وأن فيه سرّاً من أسرار الله لا بد من طلبه.

وعوداً على اللغة الآدمية، فليعلم أن البرهان -بعد تعليم اللغة آدم عليه السلام- يكمن في كيفية ظهور لغات عديدة من تلك اللغة الواحدة، فلا ريب أنها مرت بمراحل وأطوار، حتم ذلك استطالة دور الأزمان، وتباعد الدور والمكان⁽¹⁾، حتى قسم علماء اللسانيات لغات العالم إلى عوائل وفصائل، فهذه لغات سامية، وأخرى هندية أوروبية، إلى غير ذلك مما يُفصّل فيه أهل اللسانيات، والشاهد أن سبيل إدراك هذا كله لا يكون إلا بالعلم.

أما فيما يتعلق باختلاف ألوان الصبغة اللونية للبشر، فإن في وجوده عجباً، وكتخريج عقلي، يصح القول بأن أباهم آدم -عليه السلام- قد خلق على صبغة لونية معينة معدة فيه إعداداً باطنياً، ثم ظهر هذا التنوع اللوني في ذريته بعد، مما يدل على أن الله -عز وجل- قد جعل ذلك مودعاً في خلقة آدم، وهذا ما يكشفه علم الجينات اليوم، فلكل آدمي شفرته الوراثية الخاصة به، حاملاً معه ما ورثه من آبائه وأمهاته أجمعين، فالأب قد يكون أبيض والأم مثله، لكن في جينات أحدهم صبغة ذات لون مغاير ورثه من أحد آبائه، فلربما تتحى اللون عن الظهور في الآباء، وساد ظهوره في الذرية، في عملية حيوية عجيبة، لا يدرك سرها وكيفيةها إلا بالعلم، فبسلطان العلم تدرك حقائق هذه الأمور، لذا كان ربط الاعتبار في معنى الآية بالعلم ألصق مناسبة، إذ هو سبيله وطريقه، والحمد لله.

وهذا التوجيه إنما هو على قراءة حفص عن عاصم، بكسر اللام (العالمين) وقراءة الجمهور بفتحها، أي: أن المذكور علامة وآية منصوبة للعالمين، قال ابن عطية: "قرأ جمهور القراء: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بكسر اللام، فالأولى على أن هذه الآية هي نفسها منصوبة لجميع العالم، والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم."⁽²⁾

وعليه، يظهر أن العلم المعلق عليه الاعتبار في الآيات إنما هو النتيجة النهائية والمعلومة المستفادة بعد التفكير والتدبر والدراسة، ولعل الفرق في كون الآية الأولى التي في شأن الاعتبار بمصير الأمم السابقة، أقول: لعلها جاءت بصيغة المضارعة لتدل على تجدد حصول العلم في نفوس الناس، كلما تجدد لهم اعتبار من عذاب أو مصيبة حلت بقوم، أما الصيغة الاسمية في الآية الثانية فهي جاءت لتدل على الثبوت والدوام، فلما كان خلق السماوات والأرض أمراً قد حصل في الماضي، فلا تجدد فيه، كذلك الحال في حقيقة وجود اختلاف الألسنة، وتنوع الألوان، فكلاهما مما لا تجدد في العلم به، بل يكفي حصول العلم به أول مرة

(1) قال ابن عاشور: "وَاخْتِلَافُ لُغَاتِ الْبَشَرِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ؛ فَهُمْ مَعَ اتِّحَادِهِمْ فِي النَّوعِ كَانَ اخْتِلَافُ لُغَاتِهِمْ آيَةً دَالَّةً عَلَى مَا كَوْنُهُ اللَّهُ فِي غَرِيزَةِ الْبَشَرِ مِنْ اخْتِلَافِ التَّفَكُّيرِ وَتَنَوُّعِ النَّصْرِفِ فِي وَضْعِ اللُّغَاتِ، وَتَبَدُّلِ كَيْفِيَّاتِهَا بِاللَّهْجَاتِ وَالتَّخْفِيفِ وَالْخَدْفِ وَالزِّيَادَةِ، بِحَيْثُ تَتَغَيَّرُ الْأَصُولُ الْمُتَّحِدَةُ إِلَى لُغَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَلَا شَكَّ أَنَّ اللُّغَةَ كَانَتْ وَاحِدَةً لِلْبَشَرِ حِينَ كَانُوا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَمَا اخْتَلَفَتِ اللُّغَاتُ إِلَّا بِانْتِشَارِ قَبَائِلِ الْبَشَرِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمُتَبَاعِدَةِ، وَتَطَرُّقِ التَّغْيِيرِ إِلَى لُغَاتِهِمْ تَطَرُّقًا تَدْرِيجِيًّا، عَلَى أَنَّ تَوْسُّعَ اللُّغَاتِ بِتَوْسُّعِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّغْيِيرِ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ لِلتَّغْيِيرِ عَنْهَا حَاجَةٌ قَدْ أُوجِبَ اخْتِلَافًا فِي وَضْعِ الْأَسْمَاءِ لَهَا فَاخْتَلَفَتِ اللُّغَاتُ بِذَلِكَ فِي جَوْهَرِهَا، كَمَا اخْتَلَفَتْ فِيمَا كَانَ مُتَقَفًا عَلَيْهِ بَيْنَهَا بِاخْتِلَافِ لَهْجَاتِ النُّطْقِ، وَاخْتِلَافِ النَّصْرِفِ، فَكَانَ لِاخْتِلَافِ الْأَلْسِنَةِ مُوجِبًا. فَحَلُّ الْعَبْرَةِ هُوَ اخْتِلَافُ اللُّغَاتِ مَعَ اتِّحَادِ أَصْلِ النَّوعِ". التحرير والتوير، (74-73/21).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز، (333/4).

ليصدق وصف العلم بالشيء على الإنسان، فكانت كل صيغة مناسبة لمعنى الآية وسياقها، وهكذا هي ألفاظ القرآن، تحيط بالمعاني من كل جانب.

المطلب الثالث: التذكر كوسيلة لإدراك الآيات والبراهين.

جعل التذكر سبيلاً لإدراك البرهان القرآني في موضع وحيد في القرآن الكريم في سورة مكية، وهو قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: 13].

وفي المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: في معنى التذكر الذي يقود للإيمان.

التذكر: هو ما كان بعد نسيان، كما نص على ذلك أهل اللسان، لكن المراد هنا التذكر الذي يقود لإدراك براهين الإيمان، ويمكن القول أن دلائل الإيمان ووسائل إدراكه تتفاوت، وعلى رغم أن الباري -عز وجل- قد حشد دلائل الإيمان في كونه حشداً، إلا أنه فاوت في سبل الإدراك، فمنها الجلي الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان، بل يكفي فيها نظر العاقل، والتنبية للغافل، ومنها الخفي الذي يحتاج إلى تأمل وتدبر، ولا يتوصل إليه إلا بالعلم والتفكير، وهذا التنويع في الأدلة هو في غاية الإعذار من الله -عز وجل- للخلق، فليس على الله حجة بعد ذلك، فكل ما في العالم يدل عليه، حتى إن إنكار وجوده يعد إنكاراً للعقل، وإنكاراً للفطر. والتذكر الذي يوصل للإيمان، هو ما يقع من أصحاب الغفلة العارضة، من يحتاجون إلى تنبيه وإرشاد فقط، فيهدتون، ويدركون المعنى المراد، وترجع قلوبهم إلى حديقة الإيمان، والملاحظ أن الذي ينبه عليه في الآيات بسبيل التذكر هو ما كان في غاية الجلاء والوضوح كما سيأتي.

المسألة الثانية: موضوع الآية التي علق الاعتبار فيها على التذكر.

أشار المولى -عز وجل- في هذا الموضع إلى حقيقة مبهرة، وآية من آياته الأرض، ألا وهي قضية التنويع المهور في المملكة الحيوانية والنباتية -على حد سواء- في الأرض، وهذا يعد دليل قدرة فائقة، وخبرة عريضة، ويدل على إرادة عليمه خيرة، فليست الحيوانات ولا النباتات على جنس واحد، وهم رغم تنوعهم واختلافهم في خلقهم وسننهم، إلا أنهم يشتركون في بنية الخلقة، فكل يشترك في وجود الخلية الحية والشفرة الوراثية، كما يشتركون في التكوين، كاشتراك الحيوانات في وجود الأجهزة الحيوية في أجسامهم، كالجهاز العصبي، والهضمي، والتناسلي، ونحو ذلك، كما تشترك جميع النباتات في عملية البناء الضوئي مثلاً. هذا من جانب، ومن جانب آخر فهو -جل جلاله- يلفت الأذهان أيضاً إلى آية التزاوج التي بها يذراً الخلقة، بدلالة كلمة ﴿ذَرَأَ﴾، وكما في قوله -عز وجل-: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. فأية التزاوج معجزة بحق، وتدل على تصميم دقيق، ينم عن علم محيط، علم لا يكون إلا من إله.

ولما كان وجود التنوع، وسنة التزاوج من أظهر الأمور التي يدركها كل عاقل، اكتفي بالتذكير، وجعل الاعتبار منوطاً بمن كان قلبه حياً فينتبه لما تراه عينه، حتى كان التذكر ديدنه، فهو يذكّر، فما إن غفل قلبه إلا انتبه وسارع بما يعيد له حياته، فمن كان هذا شأنه فخلق به أن يتعظ بالآيات والعبر التي يسوقها الباري -عز وجل- في كتابه.

ومن المثير للاهتمام، ورود مثل هذه الصيغة -أعني التذكر- في موضوع ذي صلة بالتنوع الحيواني والتزاوج، وذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]، فمجدداً، وجود التنوع الهائل في الخلقة الأرضية،

وكونهم من ذكر وأنثى في كل نوع، فضلاً عن آية التزاوج، كل ذلك من أظهر الأمور في الأرض، ولا تحتاج إلى عظيم اجتهاد لإدراكها، لذا رتب عليها التذكر، ولهذا المعنى أشار ابن عاشور إذ يقول: "وَنَبِطُ الْإِسْتِدْلَالِ بِاخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ بِوَصْفِ التَّذَكُّرِ لِأَنَّهُ اسْتِدْلَالٌ يَحْصُلُ بِمَجَرَّدِ تَذَكُّرِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، إِذْ هِيَ مَشْهُورَةٌ."⁽¹⁾، غير إن من أهل التفسير من قال التذكر هو التفكير، فنقل ابن عاشور عن الفخر صاحب «درة التنزيل»: "وَأَبْدَى الْفُخْرُ فِي «دُرَّةِ التَّنْزِيلِ» وَجْهًا لِاخْتِلَافِ الْأَوْصَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، [سُورَةُ النَّحْلِ: 11] وَقَوْلِهِ: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، [سُورَةُ النَّحْلِ: 12] وَقَوْلِهِ: ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾؛ بِأَنَّ ذَلِكَ لِمُرَاعَاةِ اخْتِلَافِ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى قُوَّةِ التَّأَمُّلِ، بِدَلَالَةِ الْمَخْلُوقَاتِ النَّاجِمَةِ عَنِ الْأَرْضِ يَحْتَاجُ إِلَى التَّفَكُّرِ، وَهُوَ إِعْمَالُ النَّظَرِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْعِلْمِ. وَدَلَالَةُ مَا ذَرَأَهُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ مُحْتَاجَةً إِلَى مَزِيدِ تَأَمُّلٍ فِي التَّفَكُّرِ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَتَنَاسُلِهَا وَفَوَائِدِهَا، فَكَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّذَكُّرِ، وَهُوَ التَّفَكُّرُ مَعَ تَذَكُّرِ أَجْنَاسِهَا"⁽²⁾، ووافق هذا المعنى البقاعي إذ يقول: "وَالْتَذَكُّرُ: طَلَبُ الْمَعْنَى بِالتَّفَكُّرِ فِي مُتَعَلِّقِهِ"⁽³⁾. ووافق ذلك القشيري إذ يقول: "ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ثم قال بعده بآيات: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾. وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة، فأولاً التفكير، ثم العلم، ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه، فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر، وهو التذكر"⁽⁴⁾. وهذه الأقوال وجيهة، غير إن اختيار ابن عاشور هو الأقرب للواقع ولسياق الآيات، والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع: التقوى كوسيلة لإدراك البرهان الإيماني.

جُعِلَتِ النُّقْوَى سَبِيلًا لِإِدْرَاقِ الْبَرْهَانِ الْقُرْآنِيِّ فِي مَوْضِعٍ وَحِيدٍ فِي الْقُرْآنِ، فِي سُورَةِ مَكِّيَّةٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 6]. وفي المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: التقوى وإدراك حقائق الإيمان.

قالوا في التقوى كلاماً عذباً تطمع القلوب في مطابقة وصفه، وليس هنا محل سرده، إنما المراد هنا الوقوف على جوهر التقوى وعلاقتها بإدراك حقائق الإيمان، وحين نتأمل التقوى، نخلص إلى أنه يصح وصفها بأنها خُلُقٌ من أجل أخلاق بني آدم، ووجود الأخلاق لدى الإنسان يؤكد وجود الروح في هذا المخلوق، إذ ليست الأخلاق من عالم المادة، بل هي من عالم الروح، والله -عز وجل- هو الضامن لها، فلم يصدق الصادق؟ ولم يرتدع عن السوء المسيء؟ ولم يلتزم الإنسان بأخلاقه لولا ابتغاء جنابه -جل جلاله-، هذا هو جوهر التقوى؛ باعث قلبي على التزام ومراقبة، أن يلتزم الإنسان أخلاقه ويتسامى من أجل محبته ومعبوده الجليل، ويراقبه في أقواله وأفعاله وحتى خواطره، وهذه مرتبة عالية، ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وأحوال المتقين تتفاوت، وينال المرء من السعادة بقدر ما حواه قلبه من التقوى، إذن فالتقوى هي حالة استتارة قلبية ذهنية باعثها الروح، تميز الإنسان عن أقرانه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (4/118).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) البقاعي، نظم الدرر، (11/123).

(4) القشيري، لطائف الإشارات، (2/287).

أفقياً وعمودياً، أما أفقياً؛ فذلك لأن فضاء أعماله مختلف عن غيره بما حتمت عليه تقواه، فهو يستحضر المراقبة والطمع في الزلفى مع كل عمل، فجعل أعماله مرتبطة بالآخرة، وأما عمودياً؛ فذاك بما يناله من الزلفى ورفعة الدرجات عند الله -عز وجل-.

فإذا تقرر هذا من كون التقوى في وصف من أوصافها، حالة استنارة قلبية وذهنية فتيلها الشوق للرب، ومن كان هذا وصفه كان حرياً به أن يدرك الإشارات الإلهية والعبارات الربانية بما تحمله من سمو معاني وعظيم مقاصد، فيفقه ما يرى ويسمع، ويربط كل وجود بالموجود الأعلى، فيهابه ويخافه، بما أدرك من دوام ملكه، وإحاطة سلطانه، ويحبه ويرجو لقاءه بما يرى من لطيف صنعه بأضعف خلقه، وبما يلامسه من وده وحنانه حال ضعفه وهوانه، وكيف يقبله كلما عاد إليه بعد جنحانه.

لذا كانت التقوى وسيلة من وسائل إدراك الاعتبار في الآيات، لما تحمل عليه صاحبها من قبول الحق ورد الباطل، ومن كان خلواً من إسلام، لكن في قلبه تقوى فإنها تقوده إلى الحق -جل جلاله- لا محالة، والله تعالى أعلم.

المسألة الثانية: الموضوع الذي علق الاعتبار فيه على التقوى.

ورد تعليق إدراك البرهان الإيماني بالتقوى في موضوع وحيد، في سورة يونس -عليه السلام-، وذلك قوله -عز وجل-:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ [يونس: 6]، فيكون دليل التقوى مرتبطاً بالدلائل الكونية المتمثلة في:

1. اختلاف الليل والنهار.

2. تنوع أجناس الخلق في السماوات والأرض.

أما اختلاف الليل والنهار، فهي عملية مقارنة بين مخلوقين، وآيتين من أعظم آيات الكون، ويكتسبان مكانة مهمة في العناية القرآنية، فكثيراً ما تكرر ذكرهما في القرآن الكريم مقرونان، حال كونهما برهاناً دالاً على وجود الخالق، فلكل نظامه وعالمه المنطوي تحته والخاص به، وللخليفة فيهما أعمال مختصة، فعمل النهار لا يكون في الليل، وعمل الليل لا يكون في النهار، ثم إن وجود الليل والنهار ابتداءً بذاته هو من أعظم دلائل القدرة الإلهية، فضلاً عن كون اختلافهما مضبوط بعناية فائقة ليستقيم أمر الدنيا وأهلها، ولولا وجود الليل والنهار والاختلاف الحاصل فيهما، لما استقامت على الأرض حياة، ولضاعت مصالح العباد من إنس وحيوان ونبات، لذا امتتن الله بهما واختلافهما على عباده، وكل ما امتن الله به في كتابه أو أشار إليه فهو يكتسب أهمية عظيمة في وجود الحياة واستمرارها.

وأما ما خلق الله في السماوات والأرض، فهذا يشمل الكون وما فيه أجمع، ما أبصرنا منه وما لم نبصر وما لن نبصر، وتنوع الخلائق، وما ينضوي تحت كل تنوع من تصميم خاص، ليدل بالضرورة القاطعة، والحقيقة الدامغة، على وجود الإله الواحد، الذي خلق كل شيء وفق نظام دقيق، وتصميم ينم عن علم محيط، وخبرة فائقة، وقدرة بالغة، فليس التنوع في الأرض أعجب منه في السماء، بل كلاهما حوياً من التنوع ما تكل العقول عن وصفه، وتثقل الدواوين عن حصره، فسبحان الذي أحصى كل شيء عدداً، أحاط بكل شيء رحمةً وعلماً.

ولقد شاع في جو سورة يونس -عليه السلام- الترهيب والإنذار الحاملان على الخشية من الإله القدير، والتقوى تتصل بهذه المعاني من حيث كون المتصف بها يتقي بإيمانه وأخلاقه المكاره والمخاوف، وأعظم ما يُتقى هو غضب الله تعالى وناره، فبهذا الاعتبار يكون تعليق الاعتبار بالتقوى في سورة يونس في أصق مناسبة؛ ذلك لأن موضوع الآية هذه مما اشتركت فيه

الصفات المدروسة في هذا البحث، ولابد من معيار تتمايز بينه المواضيع، تمايزاً أكسب كل موضع خصوصيته ومناسبتها التي من أجلها ورد في تلك السورة، ويظهر أن ذلك متصل بمقصود السورة وجوها العام، وغرضها الخاص، والله تعالى أعلم.

وقد مر سابقاً الكلام حول معنى التقوى وأنها ينبوع الشريعة، ومن أسمى غاياتها، غير إن العلماء حين يعرفون التقوى، فإنهم يتناولونها كناتج للإيمان، لكن ألا يمكن أن يتصف شخص ما بالتقوى وهو غير مسلم، ثم تقوده تقواه إلى الإيمان؟ ذلك أن تعليق الاعتبار بها يشعر بذلك، فكأنه يقول، لا يتوصل لحقائق الإيمان، ولا يدرك هذه البراهين إلا من كان في قلبه تقوى، وعليه فلا يحتمل المرء جنائية من القول إن زعم أن غير المسلم إن كانت في قلبه أصول التقوى والنزوع إليها، فإنها تقربه للإسلام إذا عمل نظره في الدلائل المشار إليها في الآية، كذلك فإنه يترتب على إدراك هذه الحقائق، آيات وعبر كثيرة لعباد الله المتقين، من خوف ورجاء للإله، وما يدور بينهما من معان جليلة.

المبحث الرابع: ثنائية الصبر والشكر والعبودية والإنابة كروافد لإدراك البراهين في الآيات القرآنية.

في المبحث مطلبان، كل ثنائية تمت دراستها في مطلب.

المطلب الأول: الصبر والشكر كرافدين لإدراك البراهين في الآيات القرآنية.

الآيات التي جعل سبيل إدراك برهانها هو ثنائية الصبر والشكر هي أربع آيات في الكتاب، كلها في سور مكية، وهي مرتبة على اعتبار ترتيب المصحف:

1. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5].
 2. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [القمان: 31].
 3. ﴿قَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبا: 19].
 4. ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33].
- وفي المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: في تكوين ثنائية الصبر والشكر، وعلاقتها بإدراك براهين الإيمان.

الصبر: هو المنع والحبس كما حكوه عن أهل اللسان فيه⁽¹⁾، والصبر يحوي ثلاثية تتألف من معاني المنع والشدة والضم⁽²⁾، وعرف ابن القيم⁽³⁾ الصبر بأنه ثبات القلب على الأحكام القدريّة والشرعية⁽¹⁾، وهو تعريف وافٍ، وقال ابن رجب

(1) ينظر: لسان العرب، (438/4)، ومختار الصحاح، ص354.

(2) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص 7.

(3) ابن القيم، النحوي، المفسر، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين المعروف بابن القيم أو ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد: سنة 691 هـ، كان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، وبالفقه وأصوله، والعربية، ويعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم

الحنبلي⁽²⁾ مبيناً أنواع الصبر التي تعرض للإنسان حتى يكون من الصابرين: "والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة"⁽³⁾، وهذا هو ميدان الصبر الرحيب، والمؤمن تتبدل أحواله بينهم، فمقل ومستكثر، ولا يترقى العبد في مدارج السالكين حتى يذوق علقم الصبر، فالصبر من أشق رياضات النفس؛ لذا فتح الصبور -جل جلاله- خزائن العطاء للصابرين من عباده المؤمنين بلا حساب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، ومدح صفوته من خلقه وأثنى عليهم في مقام الصابرين فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأَنْبياء: 85].

ومن ركب لجة الصبر، واجتاز مفازته، وذاق مره ولوعته، فذاك الصبور الذي بلغ في الصبر الدرجة العالية، فكان صبوراً لما جاهد بصبره، ومن كانت هذه صفته، فحري به أن يكون قد اكتسب من الخبرة الإيمانية ما ليس يدركه إلا مثله، ويعلم من هيبته ربه ولطفه وجلاله، ما ليس يعلمه إلا مثله، فللصابرين أحوال مع الرحمن جل جلاله -لما سمت أرواحهم- ليست لغيرهم، وتكشفت لهم عين البصيرة ما يدركون به حقائق الأمور في الدنيا، فهم أولى من يتعبر بدلائل الإيمان وبراهينه.

أما الشكر فهو الثناء على من أحسن إليك بالمعروف⁽⁴⁾، والاعتراف بنعمة المنعم، وفعل ما يجب من الطاعة وترك المعصية⁽⁵⁾، والشكور صيغة مبالغة من الشكر، أي: كثير الشكر، فسبحان الشاكر الشكور، الذي تمنن على عباده وتفضل، فحباهم من وصفه، ونحلهم من اسمه، وأثنى على الشاكرين الشكورين، وكفى بذلك للمحبة شعاراً ودثاراً. وقد أثنى الله -عز وجل- على أنبيائه وأصفِيائِهِ من أوليائه حينما حققوا مقام الشكر، فقال مادحاً عبده نوحاً: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

وهذه الثنائية الإيمانية قد ورد تفصيل ارتباطهما في صحيح السنة، فقد أشار إليهما النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح فقال: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ). رواه مسلم⁽⁶⁾، فعلمنا أن هذه الثنائية الإيمانية متعلقة بتصاريف مقاديره في خلقه، واختلاف تدابيره في أمره ومملكه، وأحوال أهل الإيمان دائرة بين شكر العطايا والصبر على البليات، ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35]، "فهذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره، وكل ملزم بحده وقدره، والله غالب على أمره، مقدس في نفسه متعزّز بجلال قدسه"⁽⁷⁾.

ودقائقهم، من مصنفاته: «كتاب الكافية الشافية لانتصار الفرق الناجية»، و«التبيان في أقسام القرآن»، و«مدارج السالكين»، و«إعلام الموقعين» وغيرها كثير. توفي سنة 751 هـ.

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الروح، ص 241.

(2) ابن رجب، أبو الفرج، زين الدين، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود البغدادي، الدمشقي، الحنبلي، الشهير بابن رجب، محدث، حافظ، فقيه، أصولي، مؤرخ. ولد ببغداد سنة 736 هـ، وقدم مع والده إلى دمشق، وسمع بمكة وبمصر، وتوفي بدمشق. من مصنفاته: «ذيل طبقات الحنابلة»، «لطائف المعارف»، «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، «شرح صحيح الترمذي»، و«تقرير القواعد وتحريير الفوائد» في الفقه. توفي سنة 795 هـ.

(3) ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد، تفسير ابن رجب الحنبلي، (222/2).

(4) ينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 344، ولسان العرب، (424/4).

(5) الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، (387/1).

(6) [مسلم: صحيح مسلم، الزهد/ باب: المؤمن أمره كله خير، 2295/4، رقم الحديث: 2999].

(7) القشيري، لطائف الإشارات، (240/2).

المسألة الثانية: المواضيع التي علق إدراك الاعتبار فيها على الصبر والشكر معاً.

حين نتأمل ثنائية الصبر والشكر، نخلص إلى أنهما يتعلقان بالحوادث التي تحدث للإنسان، والتي هي مقاديره التي قدرها الله تعالى، فالصبر يكون على المكاره، والشكر يكون على النعم؛ كما وضع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ لذا فإن المواضيع التي علق الاعتبار فيها على ثنائية الصبر والشكر لابد أن تكون أقدرًا تحوي مستكرهات للإنسان، ليصبر عليها المؤمن، وأن تحوي محبات له فيشكر ربه عليها المؤمن، وبلاستقراء يظهر أن المواضيع هي:

1. تذكر أفعال الله العظيمة الخاصة بمواقف معينة، سواء كانت نعمة أو نقمة.
2. طلب الرزق وما فيه من سعي قد يفلح أو يخيب.
3. التنويه على أهمية شكر نعم المعيشة، والصبر عند المصائب والكوارث وتبدل الأحوال.
4. الصبر عند الخوف، والشكر عند النجاة من عموم المصائب.

أما الموضوع الأول، وهو تذكر أفعال الجليل -عز وجل- العظيمة، فذاك مستنبط من قوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]، ولقد جرت في بني إسرائيل الأعاجيب، من أيام أعز الله فيها الإسلام وأهله، ودحر الشرك وأهله، فعلمنا ربنا أن نصبر ونشكر، فالمؤمن لابد أن يصبر على أقدار الله المؤلمة مستبشراً بنصر الله ومؤازرته، وله في سلفه الصالح -أنبياء الله- الأسوة الحسنة، حتى إذا أتى فرج الله تعالى، ظل ما بقي في الدنيا شاكرًا لربه -عز وجل-، فالمؤمن في أقداره بين صبر وشكر، وقد صام رسولنا صلى الله عليه وسلم عاشوراء شكرًا لله -عز وجل- على نصره المؤزر لأوليائه الصالحين، فهذا امتثال مباشر لأمر الله -عز وجل- في هذه الآية.

وعليه فإن مناسبة الصبر والشكر لهذه الآية مناسبة ظاهرة، ولا يدرك الاعتبار المشار إليه في هذه الآية، على الحقيقة إلا من عالج الصبر، وامتلاً قلبه شكرًا لربه -عز وجل-.

وأما الموضوع الثاني، وهو الصبر والشكر في تحصيل الرزق ذاته، فذاك مستنبط من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31]، فجريان الفلك في البحر إنما هو بنعمة الله لما أبدع فيه من الصنعة، وخلق على هيئة يستطيع معها حمل الأفلاك، وإلا لما انتفع الخلاق به، ولعسر عليهم اقتحامه، ولقد جرت سنة آدميين أن ركبوا البحر لطلب الزرق بعمومه، وطلب الرزق مهمة شاقة عموماً، وهي في البحر أشق وأخطر؛ لما فيها من تعريض النفس للهلاك، فمن هذا الباب كان الصبر صفة لصيقة بطلب الرزق عموماً وركوب البحر خصوصاً، فالصبر فيه تحمل المشقة البدنية والنفسية، من فراق للأهل ونحو ذلك، فإذا ما أتم الله المنة عليهم وظفر الإنسان بالرزق، وعاد سالماً إلى دياره، فهو مطالب بتحقيق الشكر لله -عز وجل- بما جاد عليهم من فضله وأرجعهم سالمين، مطلوبة شرعية، وإن لم يظفروا بالرزق، فسلامة الأبدان ورجوعها إلى الديار والتحامها بأحبائها، فذلك مما يعظم حق شكره، وهي في ذلك صابرة على عدم حصول الرزق هذه المرة.

وعليه فإن صفتي الصبر والشكر لهما ألصق مناسبة في موضوع طلب الرزق، في حصوله وانتقائه، فلا يدرك كمال الاعتبار في هذه الآية إلا من خلال الجمع بين هذه الثنائية الإيمانية: الصبر والشكر.

وأما الموضوع الثالث، وهو شكر طيب حال المعيشة، والصبر على الكوارث والجوائح، فذلك مستنبط من قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيِّنَاتٍ أَسْفَارْنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: 19]، فقوم سبأ كانوا في رغد من العيش، وجمع الله تعالى لهم نعمتي الأمن والرخاء في حلهم وترحالهم، فما شكروا الله تعالى على ذلك، بل أخبر عنهم ربنا أنهم بطروا معيشتهم وظلموا أنفسهم، فأرسل عليهم سيل العرم، وحل الخراب في ديارهم، ونزلت عليهم الجائحة، واستقرت فيهم النعمة، فهذا مما يعالج بالصبر، والصبر عند المصائب من أوثق عرى الإيمان، ولعله يكون وسيلة للتكفير عن خطيئة كفر النعمة لمن بدر منه ذلك.

فإذا تقرر هذا، فإن هذه الآية تعلمنا ضرورة شكر النعمة وأداء حق الله فيها، وشكرها يكون بعبادة الله تعالى وإظهار شعائره دينه، ورحمة عباده الضعفاء، والصبر يكون حين تبدل الأحوال، وترفع إحدى النعمتان: الأمن أو الرخاء، أو كلاهما، وهو أمر عسير، لا يوفق إليه إلا ذو حظ عظيم، ولا يدرك الاعتبار من هذه الآية إلا قلب بلغ مرتبة رفيعة في الإيمان، فجمع هذه الثنائية الإيمانية العظيمة، وعليه فإن تعليق الاعتبار بهاتين الصفتين في هذه الآية له ألصق مناسبة بموضوع الآية.

وأما الموضوع الرابع والأخير، وهو الصبر حال الخوف والخطر، والشكر عند زوالهما والنجاة، فذاك مستنبط من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلَنَّ رَوَاكِدٌ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33]، فسكون الريح يعني ركود السفن على ظهر البحر، وركودها يعني الهلاك، فالإنسان الذي يستخدم السفن الشراعية، إنما يعتمد في تحركه على الله تعالى ثم على جريان الريح، والذي ركب البحر يدرك تماماً معنى انقطاع السبل في عرض البحر، وغيره يستطيع تخيل هذه الحال بقياس على حال شبيهة، والمؤمن لا يسعه إلا الصبر عند نزول الخوف والجزع في حياته، ويستبشر بمعية الله وإحلاله الأمن والسكينة في قلبه، فلا يجزع الجزع الممقوت، الذي يتنزه عنه أهل الكمالات، بل يصبر ويكون حال خوفه سبباً لصدق توجهه لربه -عز وجل-، فيزداد يقينه بربه ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ثم هو يشكر الله -عز وجل- حال زوال الخطر والخوف، ويشكره أبداً ما بقي بتذكر نعمة الله عليه، فلا يرجع إلى حاله الأول ولا يعرض وينأى بجانبه فيكون ممن ذم الله في كتابه، وعموماً لما كانت هذه الحال المذكورة في الآية تستوجب صبراً وشكراً خاصين بها لخطورتها، استقلت بنفسها وإن كانت قد تتقارب مع آية طلب الرزق السابقة.

وعليه فإن تعليق إدراك الاعتبار في هذه الآية على ثنائية الصبر والشكر له ألصق مناسبة بموضوع الآية، ولا يدرك الاعتبار من هذه الآية ذلك إلا من وطن جوارحه لله تعالى، وتوجه إليه بصدق، ودرب نفسه على الصبر والشكر.

المطلب الثاني: ثنائية العبودية والإنابة كرافدين لإدراك البراهين القرآنية.

جعلت ثنائية العبودية والإنابة سبيلاً لإدراك البرهان القرآني في موضع واحد، في سورة مكية، وذلك قوله -عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئُ خَلْقِهِمْ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: 9]، وفي المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: في تكوين ثنائية العبودية والإنابة، وعلاقتها بإدراك البرهان الإيماني.

العبودية هي صفة الخلاق، فكل خلق لله تعالى هم عباد له، ثم اختص هذا الوصف بالمتقين، الذين يذعنون بأرواحهم وقلوبهم، ويوطنون جوارحهم على محبة الله والتذلل له، بفعل ما يحب وترك ما لا يرضيه، وقد عرّف العلماء العبودية بتعاريف

كثيرة، وليس القصد حشد تلك الأقوال، إنما المراد الوقوف على ذلك الشعور القلبي الذي يستشعره كل تقي، ذلك الشعور القلبي الذي لا يبرح قلب الإنسان، فيجعله دائم التذكر لربه، فيذكره قائماً وقاعداً، ومضطجعاً، ذلك المهجع الذي تسكن إليه الروح من غربة الدنيا، وهو الباعث الذي بسببه يتجلى اسم الله فجأة، ويستحوذ على قلب الرجل، فيذكره إياه خاوياً، فتفيض عيناه شوقاً لربه، وتخفق أعماقه تسبيحاً، ويلهج اللسان دعاءً. اللهم تصبيراً منك على الدنيا حتى نلقاك في جنتك.

تلك هي العبودية المنشودة، التي تجعل المرء منشغلاً في ربه، فلا يرى إلا الله، ولا يسمع إلا الله، ولما كانت هذه الطريق طريق الخاصة؛ لأنها تحتاج إلى ترويض عريض وجهد كبير، وتدريب كثير، قل سالكوها، ومن سلكها قلما يمكث فيها زماناً طويلاً، وأغلب أحوالنا تردد بين هذا الطريق وما دونه، لذا كانت الإنابة هي الحاجب على الباب، فلا يدرك السالك طول المكث والإقامة في هذا الدرب إلا بكثرة الإنابة وطول تعاهدها، فهي السبيل إليه، وهي المعين عليه، فالزمها بحق الذي أنت مقبل عليه.

المسألة الثانية: المواضيع التي علق الاعتبار فيها على ثنائية العبودية والإنابة.

موضوع الآيات الكونية من أكثر المواضيع التي جاء فيها تعليق الاعتبار بصفات معينة، إلا أن سياق هذه الآية مختلف نسبياً عن أخواتها؛ فهي جاءت بعد ذكر خبر تكذيب الكفار لإخبار الصادق صلى الله عليه وسلم عن البعث، وفعل الكفار هذا استكبار مناقض للعبودية التي يأمر بها الإسلام أتباعه، والتي هي واجب كونى لله تعالى على كل مخلوق، فابتدأت الآية بتقرير قضية الملك المطلق لله - عز وجل - في إشعار بالقدرة على إنفاذ الوعد والوعيد، وذكر بعد ذلك قضية إنزال العقوبة بالمكذبين بالخسف وغيره، فلما صدر الآية بهيبة الملك، وثنى بعزة السلطان، ختم بدليل تمام القدرة وتلك فسحة العفو، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، فكان في ذلك ألصق مناسبة لموضوع الآية، فلا يدرك الاعتبار من هذه الآية، إلا من تخلق بخلق العبودية، فارتعدت فرائصه، ووجل قلبه، واستسلم وأذعن لله الواحد القهار، وأناب إلى الله وعاد إليه وارتجع.

ولعل في تخصيص وصف العبودية بالإنابة، وهي فرع عنها، إشعار بسمو مقام المنيب التائب، الرجاء إلى ربه كلما شط وابتعد، وقد أمر الله - عز وجل - بالإنابة إليه صراحة، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: 54]، فالإنابة في جوهرها تعني الاعتراف والإقرار بالخضوع لسلطان الله تعالى، وأن النفس لا يسعها إلا التسليم له، والرجوع إليه، فهو حصنها وسندها وركنها الشديد، ويمكن القول بأن الإنابة عملية شعورية تتبعث من القلب، وذات الدافع القلبي للإنابة هو ذاته الذي يحمل الإنسان على إبطار آيات الله في كونه والاعتبار منها، وتلك هي العبودية في أظهر صورها، وبالإنابة يدرك الإنسان الاعتبار بآيات الله الزاجرة، ومواعظه البالغة، ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذُكِّرَىٰ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 8].

خاتمة البحث وأهم النتائج

الحمد لله اللطيف الخبير الذي أحكم كتابه، وصانه من عبث العابثين، وتحدى أن يأتي بمثله أحد من العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، صاحب الحكمة البليغة، والشرعية المنيرة، وعلى آله الطهر المكرمين، وعلى صحبه الغر

الميامين، وبعد، فهذا بحث مناسبة الصفات الواردة في فواصل (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)، و(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) ، وتم على ما يسر الله وأعان، وقد خلص إلى النتائج الآتية:

1. الصفات في فواصل الآيات المدروسة جاءت في غاية الاتساق مع: معاني الآيات، وجو السورة العام، وجوهرها الخاص، وتمثل هي السبيل والمفتاح الذي من خلاله يكون الاعتبار من الآية على وجه الكمال.
2. هذا الأسلوب في توجيه الاعتبار المباشر من خلال صفة معينة هو من خصائص السور المكية، وهو منسجم مع غرضها ومقصدها الساعي إلى التدليل على وحدانية الله وصدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.
3. السور المدنية حوت أسلوباً مقارباً فيه اختلاف، ويظهر أنه على سبيل التذكير، لا على سبيل التأسيس كما هو في أسلوب السور المكية.
4. أكثر الصفات وروداً في القرآن للاعتبار إلى أقلها وروداً، هي: التفكير والعقل، ثم الإيمان، ثم السمع، وثنائية الصبر والشكر، ثم العلم، ثم التقوى والتذكر وثنائية العبودية والإنابة.
5. المواضيع التي دعا القرآن للاعتبار منها يمكن ردها جميعاً إلى: الآيات الكونية في الخلق وهي أكثرها وروداً، كذلك الاعتبار من أخبار الأمم السابقة، ومسائل الرزق وشكر النعم.
6. الآيات الكونية حوت جميع أنواع الصفات التي وُجِّهَ الاعتبار من خلالها ما عدا ثنائية الصبر والشكر، فدعي للاعتبار بالآيات الكونية من طريق: الإيمان، والتفكير والعقل، والسمع، والعلم، والتذكر، والتقوى، وثنائية العبودية والإنابة، وفي ذلك حكم ظاهرة، ومناسبة بالغة؛ لأنها من أعظم البراهين الربانية وأشدها ظهوراً ودلالة على الحق -عز وجل-، فدعا إليه بها من كل مسلك.
7. الأرزاق وما يتصل بها دُعي للاعتبار لها عن طريق الإيمان، والصبر والشكر فقط.
8. أخبار الأمم السابقة كان طريق الاعتبار منها من خلال: العقل، والسمع، والعلم، وثنائية الصبر والشكر.
9. طريق الاعتبار بالمعجزات هو الإيمان فحسب؛ لأنه هو الفاصل -وقت رؤيتها أو السماع بها- بين ردها لله تعالى أو للسحر والشياطين.
10. تنوعت أساليب القرآن في الدعوة للاعتبار، فخاطبت جميع المستويات، العالم الحاذق، والعامي، ومن بينهما، وهذا من بلاغة القرآن العالية، وهو في غاية الإعذار من الله تعالى.
11. جاءت بعض الآيات المدروسة في موضع يصدق عليها وصف: حُسن التخلص من موضوع إلى آخر، وهذا من قمة بلاغة القرآن وسحر بيانه.

وأوصي إخواني بتقوى الله، والتزام سنة رسوله، وببذل مزيد من البحوث في استنباط المناسبات القرآنية في شتى أنواعها، ومستوياتها، لاسيما تلك المتعلقة بالأمور الدقيقة والخاصة، والتي فيها كشف لهدايات القرآن.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

القرآن الكريم

1. البقاعي، إبراهيم بن عمر. (د.ت). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، د.ط، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
2. الرازي، محمد بن أبي بكر. (1999م). مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5. بيروت: المكتبة العصرية.
3. الرازي، محمد بن عمر. (1420هـ). مفاتيح الغيب، ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
4. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. (2001م). تفسير ابن رجب، جمع: طارق بن عوض الله، ط1، السعودية: دار العاصمة.
5. ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم. (د.ت). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية.
6. الزمخشري، محمود بن عمر. (1407هـ). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.
7. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. (د.ت). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
8. الصافي، محمود. (1418هـ). الجدول في إعراب القرآن الكريم، ط4، بيروت: دار الرشيد.
9. الطبري، محمد بن جرير. (2000م). جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاکر. ط1. دم: مؤسسة الرسالة.
10. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. (1984). التحرير والتنوير. د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر.
11. ابن عطية، عبد الحق بن غالب. (1422هـ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام بن عبد الشافي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
12. ابن فارس، أحمد القزويني. (1979م). مقاييس اللغة، د.ط، دم: دار الفكر.
13. الفيومي، أحمد بن محمد. (د.ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د.ط، بيروت: المكتبة العلمية.
14. القشيري، عبد الكريم بن هوازن. (د.ت)، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط3، مصر: الهيئة العامة للكتاب.
15. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (د.ت)، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية.
16. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (1989)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ط3، دمشق: دار ابن كثير.
17. ابن منظور، محمد بن مكرم. (1993). لسان العرب ط3، بيروت: دار صادر.
18. النيسابوري، مسلم بن الجاج. (د.ت). صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. د.ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ثانياً: رومنة المراجع

1. Ibn Ashour, Muhammad al-Taher bin Muhammad. (1984). *Liberation and Enlightenment*. (In Arabic), (no edition), Tunisia: Tunisian Publishing House.
2. Ibn Atiyah, Abdul Haq bin Ghalib. (1422 AH) *The Brief Editor on Tafsir al-Aziz Book*, (In Arabic), edited by: Abd al-Salam bin Abd al-Shafi, (1st edition), Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
3. Al-Buqai, Ibrahim bin Omar. (no date). *Al-Durar systems in relation to verses and suras*, (In Arabic), (no edition), Cairo: Dar Al-Kitab Al-Islami
4. Ibn Faris, Ahmad Al-Qazwini. (1979 AD). *Language Standards*, (In Arabic), (no edition), no country: Dar Al-Fikr.
5. AL-Fayoumi, Ahmed bin Mohammed. (no date), *the illuminating lamp in Gharib al-Sharh al-Kabir*, (In Arabic), (no edition), Beirut: The Scientific Library.
6. Ibn Manzur, Muhammad Ibn Makram. (1993). *Lisan Al Arab*, (In Arabic), (3rd edition), Beirut: Dar Sader.
7. AL-Nisaburi, Muslim bin Al-Jaj. (no date). *Sahih Muslim*. (In Arabic), Investigation: Mohamed Fouad Abdel-Baqi. (no edition). Beirut: House of Revival of Arab Heritage.
8. Ibn AL-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr. (1989), *The preparedness of the patience and the treasure of the Thankful*, (In Arabic), (3rd Edition), Damascus: Dar Ibn Katheer.
9. Ibn AL-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr. (no date), *the soul in talking about the souls of the dead and the living with evidence from the Qur'an and Sunnah*, (In Arabic), (no edition), Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.
10. AL-Qushayri, Abdul Karim bin Hawazen. (no date), *Latif Al-Asharat*, (In Arabic), edited by: Ibrahim Al-Basyouni, (3rd Edition), Egypt: The General Book Authority.
11. Ibn Rajab, Abdul Rahman bin Ahmed. (2001). *Interpretation of Ibn Rajab*, (In Arabic), compiled by: Tariq Ibn Awad Allah, (1st Edition), Saudi Arabia: Dar Al Asimah.
12. AL-Razi, Muhammad bin Abi Bakr. (1999 AD). *Mukhtar As-Sahah*, (In Arabic), verified by: Yusef Al-Sheikh Muhammad, (5th Edition). Beirut: The Modern Library.
13. AL-Razi, Muhammad bin Omar. (1420). *Unseen Keys*, (In Arabic), (3rd edition). Beirut: House of Revival of Arab Heritage.
14. AL-Safi, Mahmoud, (1418). *Table in the translation of the Holy Quran*, (In Arabic), (4th Edition), Beirut: Dar Al-Rasheed.
15. Abu Al-Saud, Muhammad bin Muhammad Al-Emadi. (no year). *Guiding a sound mind to the merits of the noble book*, (In Arabic), (no edition), Beirut: House of Revival of the Arab Heritage.
16. Al-Tabari, Muhammad bin Jarir. (2000). *Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an*, (In Arabic), edited by: Ahmad Shaker. (1st edition), no country: The Message Foundation.
17. Al-Zamakhshari, Mahmoud bin Omar. (1407). *Disclosure of the mysteries of facts of the download*, (In Arabic), (3rd Edition), Beirut: Arab Book House.
18. Ibn Al-Zubair, Ahmed bin Ibrahim. (no date), *The ownership of categorical interpretation with people of atheism and obstruction*, (In Arabic), (no edition), Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.